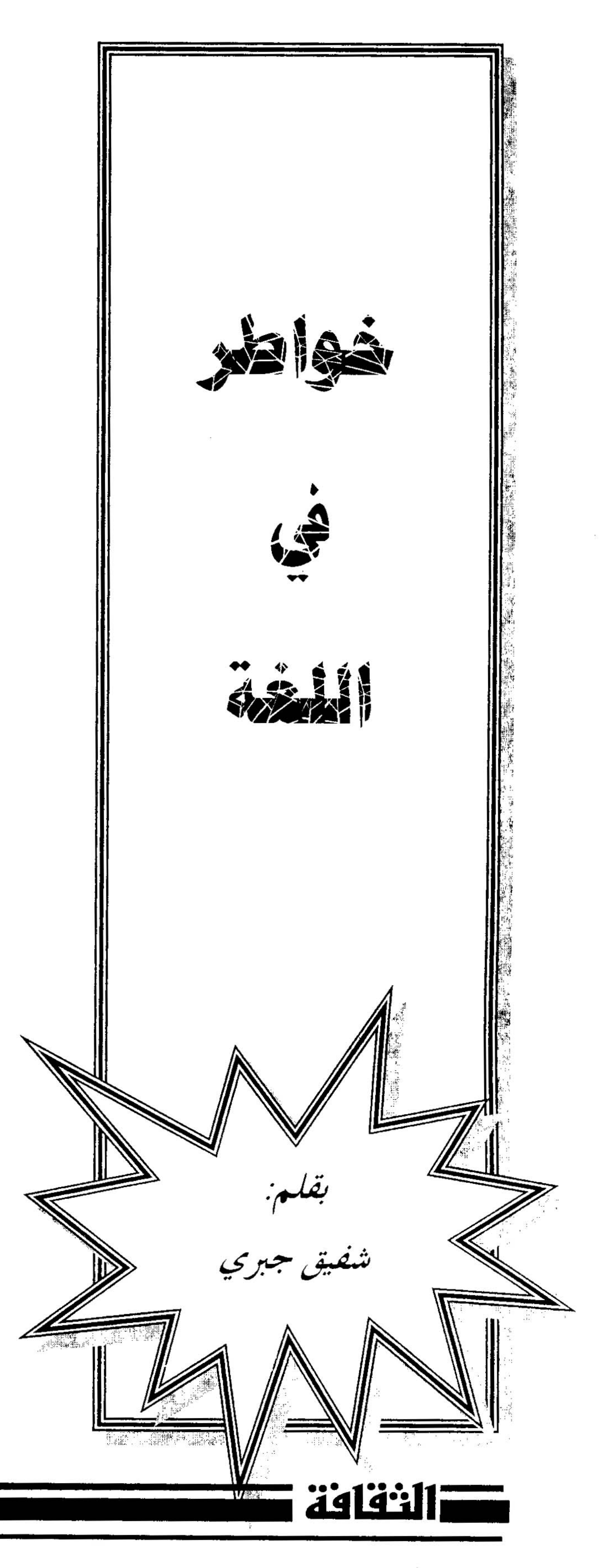


أقلب النظر من حين إلى آخر في معجم من معجميات اللغة، والمعجم الذي ألفته من سنين طويلة إنما هو القاموس المحيط للفيروزابادي، ولقد تخطر ببالي خواطر في خلال هذا التقليب فأدون بعضها. من هذه الخواطر مروري بطائفة من بقايا الفصاح أو بصورة لطيفة قد بطل استعمالها في عصرنا هذا أو بكثرة المصادر وغلبة بعضها على بعض. أو بتناقض المعاني في بعض مشتقات مادة من المواد، أو بشقاوة بعض الألفاظ وسعادتها أو بموت بعض الألفاظ، أو بغير ذلك من الأمور التي لا سبيل إلى إحصائها، وإني لأسف الأسف كله على أني لست من علماء اللغة حتى اهتدي إلى الوقوف على أسرار اللغة وخصائصها، وإذا عجزت من مثل هذا الوقوف فقد يرضيني أن أدون خواطري مكتفياً بالإعراب عنها من ناحية والإعراب من عجزي في هذا المجال من ناحية ثانية.

من بقايا الفصاح مادة تشيطن، فالشيطان معروف، وهو كل عات متمرد من انس أو جن أو دابة، وتشيطن فعل فعله، فهذه المادة فصيحة، وقد بقي استعمالها في لغة العامة حتى يومنا هذا، وأكثر ما تطلق على الصبيان الصغار، فإذا قالوا في صبي: تشيطن، أرادوا بذلك أنه مثل الشيطان، وقد اشتقوا من هذه المادة صورة لطيفة، فقالوا: شيطان الفلا، وهم يريدون بذلك: العطش، إلا أن هذه الصورة لم تبق لنا بها حاجة إليها في يومنا، فالماء في الفلا عادة قليل نادر، فإذا كنوا من العطش في الفلا إنما هو عات، متمرد مثل الشيطان، أما في عصرنا فالسفر في الفلا قليل، وإذا لم يكن قليلاً فقد يكون بالسيارات، والمسافر يستطيع أن يقطع الفلوات الطويلة ومعه الماء في سيارته ليشرب من إن عطش، وهكذا نجد أن بعض الصور الشعرية تبطل ببطلان الحاجة إلى استعمالها، حتى لو كانت هذه الصور طريفة.

وإذا انتقلنا من بقايا الفصاح ومن بعض الصور اللطيفة إلى كثرة المصادر، وجدنا أن من مصادر قرأ: قرءا، وقراءة، وقرآنا، فقرء كاد يختفي في الاستعمال فنكاد لا نجد له أثرا في كتاباتنا، والقرآن غلب على كتاب الله عز وجل فهو التنزيل، وقد جاء بمعنى القراءة في آية من محكم الآيات: ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾

(أي قراءته، كما جاء في شعر رثي به عثمان رضي الله تعالى عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به

يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

ألا أن هذا الاستعمال انفرد به الذكر الحكيم، فلا يقول أحدنا في هذا اليوم: فلان حسن القرآن، أي القراءة، على أن إذا قلنا هذا القول فقد يزداد قولنا شرفا لأنه مقتبس من كتاب الله، فلم يبق من مصادر قرأ الثلاثة مصدر مستعمل إلا القراءة.

وما دمنا نتكلم عن مصادر قرأ، فلا بأس بذكر مصادر كتب، يقال: كتب، كتبا، وكتابا، هذا ما دونه صاحب القاموس المحيط، فالكتب قل استعماله حتى كاد يختفي كما قل استعمال القرء. بقي الكتاب، وهو المصدر الثاني، وقد غلب هذا المصدر على ما يكتب فيه، على أنه قد جاء في كتاب الله تعالى بمعنى الفرض ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾

كما جاء بمعنى المكتوب، على نحو ما ذكره بعض المفسرين ﴿وكل شيء أحصيناه كتابا﴾

وقد استعمل الكتب بمعنى الكتابة في بعض العصور، على نحو ما جاء في شعر المتنبي:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي

المجد للسيف ليس المجد للقلم

فاكتب بنا أبدا بعد الكتاب به

فإنما نحن الأسياف كالخدم

أي بعد الكتابة به، والضمير في به يرجع إلى السيف. فأما اليوم فلا نجد من يقول: فلان حسن الكتاب أي الكتابة، فهذا المصدر استقل في معناه وانفرد فأصبح له معنى خاص.

ومن هذا القبيل على ما نعتقد مادة: الحياة، فالحيوان والحياة في اللغة بمعنى واحد، فهما نقيض الموت إلا أن الحياة انفردت بمعنى ولفظة الحيوان انفردت بمعنى آخر فلا نجد من يستعمل الحيوان بمعنى الحياة، وقد وردت في التنزيل بمعنى الحياة ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ فالحيوان يطلق في المصطلح على جنس الحي، ولا يرضى أحد أن يقال فيه أنه حيوان، فهذه اللفظة غاية في الذم، وهكذا نجد أن اللفظتين: الحياة والحيوان قد انفردت كل واحدة منها بمعنى خاص على الرغم من اشتراكهما في الأصل في معنى واحد.

فالذي يتبين لنا أن تنازع البقاء يجري على المصادر فيخفي منها بعضها ويغلب منها بعضا على بعض، ويجعل لأحدها معنى مستقلا، لا يشاركه فيه أخوه. ولسنا نعلم أن هل بحث علماء اللغة في القديم عن السر في كثرة المصادر، فهل نعرف ما هو السبب في أن لبعض الأفعال أكثر من مصدر، فإذا لم يبحثوا هذا البحث، فهل يرشدنا علماء اللغة في عصرنا إلى أسرار هذا الأمر؟.

فإذا فرغنا من كثرة المصادر ومن غلبة بعضها على بعض، فلننتقل إلى الكلام على تضاد المعاني في مشتقات مادة من المواد، يقال: الهشم، كسر الشيء اليابس أو الأجوف أو كسر العظام، أو كسر الرأس خاصة

أو الوجـه، أو الأنف **أو كل شيء، يقال هشمه** يهشمه (بالكسر) فهو مهشوم وهشيم، كل هذا واضح لا إشكال فيه. ولكن الإشكال يأتي إذا علمنا أن معنى تهشم فلانا: أكرمه وعظمه كهشمه، فما هي الصلة بين كسر الشيء اليابس وبين الإكرام والتعظيم، أفلا نرى شيئاً من التناقض بين هذين المعنيين المشتقين من مادة واحدة وهي الهشم..؟؟

من هنا نرى حاجتنا إلى معجم يبين لنا تاريخ الألفاظ وميلادها أو موتها، ويبين لنا ارتباط معاني هذه الألفاظ بعضها ببعض، فنحن نمر بقولنا: تهشم فلانا، أي أكرمه وعظمه، ولكننا لا نهتدي إلى سر هذا المعنى وأصله، وكيف كان الأمر، فما نظن أن أحداً في هذا العصر يستعمل: تهشم فلانا، بمعنى أكرمه وعظمه، وإنما نستغني عن هذه المادة ونكتفي بقولنا: أكرمه وعظمه.

والطريف بعد هذا كله انتقال بعض الألفاظ من سعادتها إلى شقاوتها، فالعصابة في اللغة كالعصبة بالضم، من الرجال والخيل والطير ما بين العشرة إلى الأربعين، وقد وردت في شعر حسان:

لله در عصابة نادمتهم
يوما بجلق في الزمان الأول

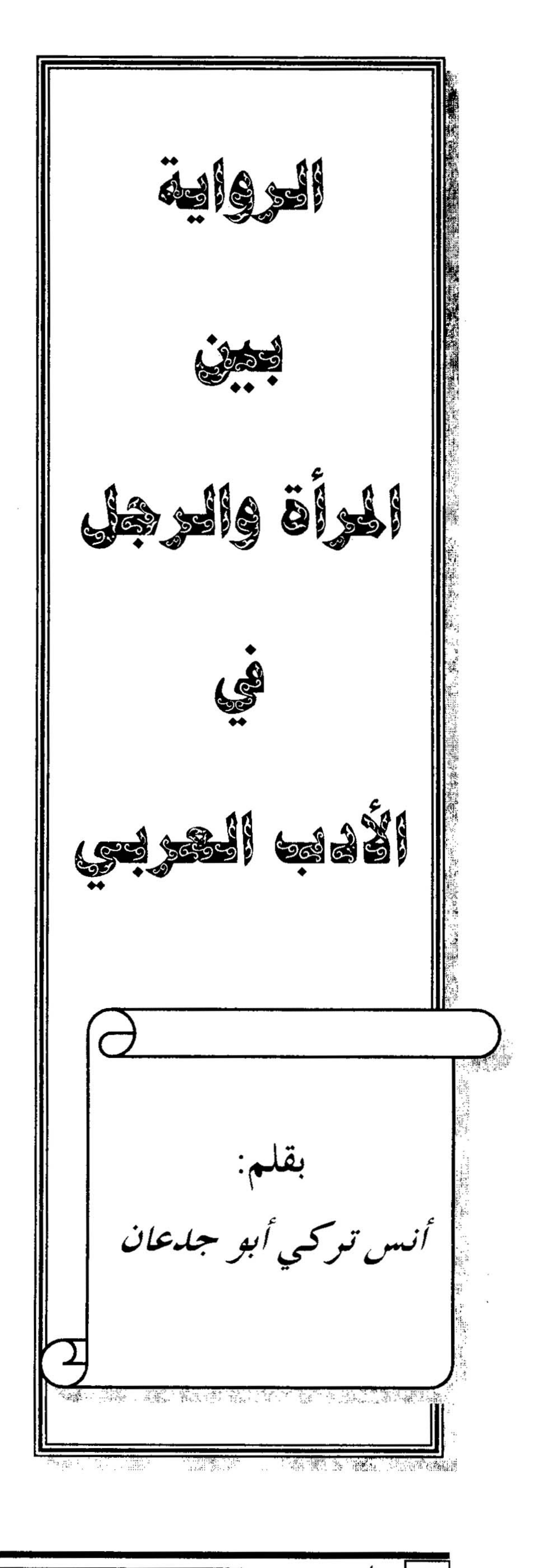
إلا أن العصابة التي وردت في هذا الشعر كانت تطلق على ملوك غسان، وما أدرانا بمجالس أولئك الملوك، فجبلة بن الأيهم وهو آخر ملوكهم، كان مجلسه -على نحو ما جاء في الأغاني- يضم خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة، وكان يفد إليه من يغنيه من أهل العرب من أهل مكة وغيرها، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف من الفضة والذهب، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف **الفضة**، وأوفد له العود المندى إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً بطن بالثلج، إلى آخر ما جاء في هذا الوصف، مع حسن الوجه وحسن الحديث... فعلى مثل هذه الطبقة أطلقت العصابة في القديم.

أما اليوم فإنها تطلق على جماعة من المجرمين والقتلة واللصوص وأصحاب السيرة المذمومة، فإذا قلنا في عصرنا: قبضت الحكومة على العصابة فإننا نفهم أن هذه العصابة من الذين قتلوا أو سرقوا أو عاثوا في الأرض فسادا. على أن العصابات قد تطلق أيضاً على جماعة من الثوار والمتمردين الذين يدافعون عن حقوق أوطانهم، وليس من الضروري أن يكونوا من المجرمين، ولكن الغالب على هذه اللفظة: العصابة أنها سعدت في عصر من العصور ثم شقيت في عصر آخر. فما أغرب اللغة وما أعجب حياتها.

وأخيراً فلنشهد موت بعض الألفاظ، يقال: تغضفت علينا الدنيا: كثر خيرها وأقبلت، فهل نجد أحدا في هذا العصر يستعمل: تغضفت علينا الدنيا، وهل السبب في ذلك ثقل اللفظة أم غرابتها..؟ إن العصر الذي نعيش فيه، إنما هو عصر السرعة، فلا يتسع وقت أحدنا لفتح المعجمات والتفتيش عن معنى مادة غريبة، وإنما نميل إلى أسهل الألفاظ وأقربها من فهمها، فإذا قال أحدنا هذا اليوم: كثر خير الدنيا وأقبلت، فهم الناس هذا القول من أيسر الطرق، أما إذا قلنا: تغضفت الدنيا علينا، أشكل عليهم فهم هذه المادة، فالعصر عصر الإيجاز في كل شيء ولا سيما الأدب.

وإذا قابلنا بين الخطب في زمن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وبين الخطب والرسائل التي حبرت في عصر اتساع مذاهب البيان كالرسائل التي جاءت على لسان صلاح الدين مثلا في فتح بعض الأمصار عرفنا مبلغ البساطة في التعبير والإيجاز في البيان.

ما أكثر الخواطر التي تخطر بالبال في مطالعة معجمات اللغة..



الرواية بين المرأة والرجل في الأدب العربي

بقلم:
أنس تركي أبو جدعان

هـل تتفوق رواية المرأة على رواية الـرجل..؟ ربما يثير هذا التساؤل الذي نطرحه سـخرية البعض، وتجاهل البعض الآخر؛ حيث يرجع الفضل في نشأة الرواية ووضع أسسها، وقواعدهـا إلى الرجل، ومن ثم فهو الذي مهد الطـريق للمرأة لكي تعرف وتتعلم أولاً ماهية فـن الـرواية، وثانياً طرائق وتقنيات كتابتها، وقد ظلت المرأة لسنوات طويلة تعرف، وتتعلم؛ حتى أتقنت تقنيات هذا الفن، وأبدعت فيه.

وفي الخمسة العشر عاماً الأخيرة من القرن العشرين والقرن الحالي، وفي ظل الزخم الروائي لرواية الرجل وصراع الأجناس الأدبية عـلى صـدر القائمــة، وظهور مقولة عصر الـرواية، بـدأت رواية المرأة تبرز بقوة لكن عـلى اسـتحياء، بالطبع كانت هناك قبل هذه الفـترة كتابات قصصية وروائية للمرأة، لكنها للأسـف لم تكن سوى تمهيد لكتابات قصصية وروائيــة تتفوق على كتابات الرجل، فظهرت كـتابات حـنان الشـيخ، وسلوى بكر، وهدى بـركات، وليــلى عثمان، وأليفة رفعت، وهالة الـبدري، وليــلى الأطـرش، ونــورا أميـن، وغيـرهن، وهــي كـتابات تجاوزت وتفوقت بخصوصـية رؤيتها كتابات الرجل، بل وحققت للرواية العربية نقلة كبيرة ومهمة.

وحيـث إن لهــذا الـتفوق مؤشراته ودلائلــه، كمــا أن لتقاعس بل وتراجع رواية

الـرجل مؤشـراته ودلائلـه، مع الوضع في الاعتـبار أن كـلا الجانبين ينعكس على الآخر ويكشف عنه.

ففـي مـرآة رواية الرجل نرى تفوق روايــة المـرأة وفي مرآة رواية المرأة نرى تـراجع روايــة الرجل، وكل ذلك في إطار من رؤية عامة للإنجاز الروائي العالمي.

السقوط في بحر التكرار

لقـد بدأ معين كبار كتاب الرواية من الـرجال في النضوب، مع ثبات التقنيات وعدم تطـور الأدوات، وانكـبابهم عـلى تحصـل المكاسـب، ومن ثم بدءوا في السقوط في بحر تقليد أعمالهم السابقة التي حازت في وقت من الأوقـات استحسـاناً كـبيراً، هـذا فضلاً عن الأيديولوجيـات الـتي يحملونها، ولم تتخلص منها كتاباتهم، بل إنهم يصرون على أن تحمل هـذه الكـتابات الصبغة الأيديولوجية ضاربين عـرض الحـائط بحجـم المـتغيرات الضخمة الحادثة الآن داخل الإنسان وخارجه..

ولأنهـم يمثـلون كـتاب الأمة، فهم يحتلون كافة المواقع على الخريطة الثقافية في كافـة وسـائل الإعلام والمنتديات والمؤتمرات المحلية والدولية، مصرين على أن لا يفسحوا مكاناً للأجيال الجديدة، هذه الأجيال التي تركت دون توجيـه أو نصـح أو تقييم من قبل النقاد الذيـن بدورهم يتجاهلون لحساب كبار الكتاب، فضلاً عن عدم تواصل الأجيال.

لـذا، فـإن الاتهامـات من قبل الكبار للصغار بالفشل لا تتوقف، والاتهامات من قبل الصغار للكبار بالنضوب لا تتوقف، الأمر الذي انعكس عليهم جميعاً صغاراً وكباراً، فكلاهما لم يقـدم جديداً للرواية العربية، والدليل على ذلك أن كتابات الروائيين الشباب رغم أنها بالمئات فـإن عـدداً قليلاً منها لفت الأنظار إليه، وهذا ينطـبق على أعمال الكبار من الروائيين، لكل ذلـك فـإن نظرة عامة في رواية الرجل خلال السـنوات الأخيـرة لا نكاد نخرج منها بالكثير من الأعمال التي تستحق أن تقرأ.

الغوص في الأعماق

هـذا في الوقت الذي ولدت فيه رواية نسـائية عفويـة وقوية، حيث أدركت الكاتبات الكـثير مـن مواطـن الضـعف فـي الرواية الذكورية، فابتعدن عن الأيدلوجيات وغصن في أعمـاق الإنسان كاشفات عن أوجاعه وآلامه، حيـث لـم تعـد العوامل الخارجية من صراع أيديولوجيات وحروب ومشكلات تستحوذ على رؤيتهن، ولكن تأثير هذه العوامل كلها مجتمعة عـلى مشـاعر وأحاسـيس وحيـاة الإنسان

ووجـوده في الزمن والمكان المحددين هي ما يهمهن.

لذا، فإن ما لم يستطع الكاتب الروائي إنجـازه حول تأثير الحروب التي دارت رحاها فـي المـنطقة العـربية خلال القرن العشرين اسـتطاعت الكاتـبة الـروائية إنجازه باقتدار، ولـنقرأ روايـة (حنان الشيخ، بريد بيروت)، وروايـة (إيمـان حميـدان يونـس، باء مثل بيـروت)، وروايات (رجاء نعمة)، لنرى كيف عـالجت الكاتـبة تأثير الحرب وأي حرب إنها الحرب الأهلية في لبنان، لقد رصدت بجماليات فـنية وأسـلوبية وتكنيكية وطأة الحرب على الـذات الإنسـانية، وردود فعل الذات الداخلية والخارجية، كل ذلك عالجته الكاتبة دون افتعال وبرقي.

إن هناك روايات تناولت حرب أكتوبر ٧٣ والحرب العراقية الإيرانية والغزو العراقي لـلكويت، واليوم الحرب الأنغلو الأمريكية على العـراق، لكـنها أبداً لم ترق إلى مستوى هذه الـروايات عـلى مسـتوى الـرؤية، ولا على مسـتوى الأسلوب والتقنية، وفي ظني أنه قد انشغل الكثير من هؤلاء الكتاب في السبعينات، وإلى وقـت قـريب بالثروة النفطية الخليجية وبالأيديولوجيـات التي تحكمها، وكأن هذا هو همهـم أن يعالجوا قوة هذه الثروة، متجاهلين تطوير رؤاهم وأدواتهم غير عابئين بالمتغيرات الـتي حدثـت داخل الإنسان العربي، فقد كانوا يعـالجون ذلـك بشكل سطحي دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الغوص داخل الإنسان والتعرف على مردوداته، ومن ثم التواصل معه، ودعمه بالـتأثيرات الجمالية والفنية والاجتماعية التي تحفظ عليه كيانه من التمزق.

أمـا المرأة الكاتبة فقد استوقفتها تلك المـتغيرات الـتي بدأت تصيب الإنسان العربي فأبحـرت فيها، وصبغتها بروح إنسانية مفعمة بالـتأجج الحسـي لـتخرج لنا أعمالاً روائية منسـوجة باقـتدار تتفوق على أعمال الرجل، وتـتجاوزها؛ لتتألق هذه الأعمال في السنوات الأخيرة، وتتصدر قائمة أهم الروايات العربية، مثل:

روايات (حجر الضحك، لهدى بركات)، و (وسـيمة تخرج من البحر، لليلى العثمان)، و (منـتهى، لهالة البدري)، و (زهرة الصبار، لعلياء بنت المنصف التابعي)، و (نجوم أريحا، لـليانة بـدر)، و(وصف البلبل، لسلوى بكر)، و (ذاكـرة الجسـد، لأحـلام مسـتغانمي)، و (الخـباء)، و (الـباذنجانة الزرقاء، لميرال الطحـاوي)، و (دنيـا زاد، لمـي التلمساني)، و (قميص وردي فارغ، لنورا أمين)، وغيرهن مـن الكاتـبات اللاتـي يشكلن الآن بكتاباتهن الرواية العربية.




الشال الأخضر..

شعر: مدحة عكاش

يا شالُ ! يا مغناجُ يا أخضَرُ
ناشدتُكَ النُّعمى أما تسكَرُ؟

يا ناعماً حَلَّ على ناعمٍ
ومُزهراً، يَدري به المزْهِرُ

حَدِّثْ حديثَ اللِّينِ عن موسم
يضوعُ منهُ المسكُ والعنبرُ

يا شالُ! ما نيسانُ؟ ما وردُهُ؟
في جنبِ ما تُخفي وما تُظهِرُ

سترتَ يا فتَّانُ من شَعْرِها
مِنْ حُسْنِهِ - يا طيبَ ما تستُرُ

جادَتْ لنا نعماكَ في خصلة
شقراءَ، ما أحلاكَ يا أشقَرُ

* * *

يا شالُ!! حسبي في الهوى أنني
أهيمُ بالحُسْنِ ولا أُظْهِرُ

أذوبُ في دنياكَ منْ لَوْعتي
وأنتَ بي يا شَالُ لا تَشْعُرُ






ظهـرت الطـباعة العـربية في أوائل القـرن السـادس عشـر، وأول مطبعة عربية بأحـرف عربية ظهرت في بلدة (فانو) بإيطاليا بأمر البابا يوليوس الثاني، ودشنها البابا ليون العاشـر سـنة ١٥١٤، ففي الثاني عشر من أيـلول مـن تلك السنة أصدر الطبّاع الفينيسي غريغوريوس غريغوروس أول كتاب عربي هو كـتاب (صـلاة السـواعي) ثـم قـام بعـده أغوسـطينوس جوسـتنياني أسقف نابيو من أعمـال كورسـيكا فطبع كتاب (مزامير داوود) سنة ١٥١٦ في أربع لغات منها العربية.

وفـي عام ١٥٣٠ طُبع القرآن الكريم فـي البـندقية، إلا أن طبعـته أتلفت خوفاً من تأثيـره عـلى معتقدات النصارى، لكنهم عادوا فطبعوا الترجمة الإيطالية الأولى للقرآن الكريم سـنة ١٥٤٧، ثـم تعددت المطابع العربية في أوروبـا، وطـبعت فيهـا مئات الكتب العربية وغيـرها أكـثر فـي لندن وباريس، وليبزغ، وليـدن، وغوتـنجن، وروما، وفيينا، وبرلين، وبطرسبرغ وغيرها.

الطباعة في الأقطار العربية

مـن المتفق عليه أن السوريين كانوا أسـبق المشارقة إلى الطبع بالأحرف العربية، وأسـبق مدن العالم العربي إلى هذا الفضل هي مدينة حلب، وأول كتاب طبع فيها عام ١٧٠٢ كـان في (مطبعة حلب) التي تأسست بمساعي الـبطريرك أثناسـيوس الرابع الدباس، وكان كـتاباً طقسـياً كنسـياً، ثم طبع فيها الإنجيل والمزامير عام ١٧٠٦، وقد استجلب البطريرك

أدوات هذه المطبعة من بلاد الفلاخ (رومانيا) التي زارها عام ١٦٩٨ فلما عاد إلى حلب سعى في سكب حروف جديدة، واستعان في ذلك بالشماس عبد الله زاخر الذي كان صائغاً وصانعاً ماهراً يحب الأدب والعلم، وكان له الفضل الأول في إعداد الحروف المطبعية العربية، وقد عاشت هذه المطبعة حتى سنة ١٧١١، وطبع فيها عشرة كتب فقط.

ظلت حلب محرومة من المطابع - بعد توقف هذه المطبعة - أكثر من قرن، إلى أن أسس أحد الأجانب المقيمين فيها مطبعة حجرية سنة ١٨٤١، طبع فيها ديوان ابن الفارض بالعربية، وكان أول كتاب غير ديني يطبع بالعربية في الديار السورية، وبعد أن توقفَتْ، ظهرت المطبعة المارونية فيها عام ١٨٥٧.

أما في دمشق فقد أسس حنا الدوماني مطبعة له عام ١٨٥٥ انتقلت بعده إلى حنا الحداد، ثم إلى محمد الحفني، إلى أن أنشأت الحكومة العثمانية مطبعة ولاية سورية عام ١٨٦٤، لتطبع عليها أول جريدة تصدر في دمشق هي جريدة (سورية) باللغتين العربية والتركية.

وفي عام ١٨٩٣ أنشأ خالد عطّار حسن مطبعةً (روضة الشام) ثم توالى بعد هذا التاريخ إنشاء المطابع في دمشق فأنشأ سليمان لطفي المطبعة الحميدية سنة ١٨٩٨، كما أنشأ محمد هاشم في السنة نفسها (المطبعة العلمية) وفي أوائل القرن العشرين أنشئت مطبعة صغيرة عرفت باسم (مطبعة نخْمَن)، كما أنشأ أديب وصالح الحيلاني (مطبعة الإنصاف) عام ١٩١٠، ولما أحرقت عام ١٩١٢ أعاد صاحباها فتحها باسم (مطبعة الترقي) التي ما تزال تحمل هذا الاسم حتى اليوم.

كذلك أنشئت (مطبعة الإصلاح) ١٩٠٩ و(المطبعة الحربية) ١٩١٠، و(مطبعة المقتبس١٩١١، و(مطبعة روضة دمشق) ١٩١١، و(مطبعة ألف باء) ١٩١٢، و(المطبعة العثمانية) ١٩١٢، و(مطبعة البطريركية الأرثوذكسية ١٩١٢ - وقد بيعت إلى ميشيل حموي وصارت تحمل اسم مطبعة باب توما وصاحبها اليوم وليم اسطفان)، و(مطبعة المنار) ١٩١٤.

أما الطباعة في الأحرف العربية فلم تعرفها الآستانة إلاّ في عام ١٧٢٨ حين أذن السلطان العثماني لمحمد الجلبي وابنه سعيد بطبع الكتب غير الدينية، فأخذا في سبك الحروف، وتعيين المصححين، وطبعا كتباً مهمة في اللغة والأدب والتاريخ بالعربية، إلى أن أسس أحمد فارس الشدياق مطبعة (الجوائب) عام ١٨٧٠.

الطباعة في لبنان

كانت أقدم مطبعة عربية عرفها لبنان هي مطبعة مار يوحنا الصايغ التي أسسها الشماس عبد الله زاخر في الشوير عام ١٧٣٣ وطبع فيها كتاب المزامير، ثم مطبعة القديس جاورجيوس التي أسسها نقولا يونس الجبيلي عام ١٧٥٣ وطبع فيها الكثير من الكتب الدينية الأرثوذكسية ومنها كتاب المزامير الذي

طـبعه طبعـتين، بالإضــافة إلى عدد من كتب الأدب والــتاريخ، واتخذ أحرف مطبعة الشوير نموذجــاً، وفــي عــام ١٨٤٨ قــام المطران الأرثوذكســي بــنيامين بتجديد مطبعة القديس جــاورجيوس، بعــد أن ظــلت خامدة حوالي مائة عام.

بعد هاتين المطبعتين أسس المرسلون الأميركيون مطبعة لهم في مالطة عام ١٨٢٢، ثم نقلوها إلى بيروت عام ١٨٣٢ وطبعت فيها الكــتب الديــنية والعــلمية والطبية والرياضية والأدبية والفلسفية والمعاجم والمجلات وغيرها ممــا ألفــه أو تــرجمه أساتذة الكلية السورية الإنجيــلية (الجامعة الأميركية) لتعليم طلابهم، فضــلاً عن التوراة التي عربها كل من: عالي سميث، وكرنيليوس فانديك، وبطرس البستاني، والشــيخ ناصــيف اليــازجي، والشيخ يوسف الأســير وتــم طبعها عام ١٨٦٥، وكان يدير المطــبعة عــالي سميث، ثم تولى إدارتها بعده كرنيليوس فانديك.

لــم يقــف أثر المطبعة الأميركية عند طــبع الكــتب المدرســية والمؤلفــات العلمية وغيرها، بل تعدى ذلك إلى مساعدة المؤسسات الأهلية على اقتناء المطابع واستكمال معداتها، وتدريب العمال على الأعمال الطباعية، وتجهيز المطــابع بالحــروف اللازمــة، فقــد كان بين معداتهــا مســبك للحروف، يجري على قاعدة معــروفة إلى الآن بالحــرف الأميركاني، وقد بقيــت هــذه المطبعة منفردة بتجهيز المدارس بالكــتب المدرســية مدة أربعين سنة، إلى أن ظهــرت مطابع أخرى استعملت حروفها منها: مطــبعة البستاني، ومطبعة سركيس، ومطبعة المقــتطف، ومطــبعة ثمرات الفنون، ومطبعة صادر وغيرها..

بــل إن المطــبعة الكاثوليكيــة نفسها استعملت هذا الحرف طوال خمسة عشر عاماً، إلى أن اســتحدث اليســوعيون حرفهم الخاص المعــروف حتى اليوم بالحرف اليسوعي، كذلك جــرت مجــراها مطــبعة سركيس، فنقش لها الشيخ إبراهيم اليازجي أمهات الحروف بخطه الجميــل، وحــرفها معروف إلى اليوم بحرف سركيس.

أمــا المطــبعة الكاثوليكيــة للآبــاء اليســوعيين فقد تأسست عام ١٨٤٨، وكانت تطــبع عــلى الحجر، وفي عام ١٨٥٢ صارت تطبع على الحروف، ولهذه المطبعة فضل كبير فــي نشر كتب الأدب والتاريخ واللغة العربية، فضلاً عن الكتب المدرسية والدينية، ولا سيما الــتوراة التي ترجمها اليسوعيون أيضاً، وهي أكــبر المطــابع العــربية فــي سورية ولبنان وأتقــنها، وقد صنعت قواعد للحروف العربية خاصة بها.

لقــد كــان للتســهيلات التي أتاحتها المطــبعة الأمريكية، ثم المطبعة الكاثوليكية في نطــاق الإمــداد بالمعدات الطباعية، والتدريب المهــني، أثــر كــبير في ازدياد عدد المطابع الأهلية، ولا سيما خلال الربع الثالث من القرن التاســع عشر (١٨٥٥-١٨٧٤) فكان أوفرها نشاطاً وأكثرها إنتاجاً:

١-مطبعة دمشق (١٨٥٥) لحنا الدوماني.

٢-المطبعة السورية (١٨٥٧) لخليل الخوري.

٣-المطبعة الشرقية (١٨٥٨) للدكتور إبراهيم النجار.

٤-المطبعة العمومية (١٨٦١) ليوسف الشلفون.
٥-المطبعة الوطنية (١٨٦٥) لجرجس شاهين.
٦-مطبعة المعارف (١٨٦٧) لبطرس البستاني.
٧-المطبعة اللبنانية (١٨٦٩) لحنا غرزوزي.
٨-مطبعة الجوائب (١٨٧٠) لأحمد فارس الشدياق.
٩-مطبعة ثمرات الفنون (١٨٧٤) بعناية عبد القادر القباني.
١٠- المطبعة الأدبية (١٨٧٤) لخليل سركيس.

وبفضل هذه المطابع كلها انتشر فن الطباعة العربية في لبنان، وكان من قبل محصوراً في مطبعة دير مار يوحنا الصايغ في الشوير، وازداد عدد المطابع بشكل ملحوظ، فظهرت مطبعة بيت الدين لحنا أبي صعب التي بدأت أعمالها ببعض المطبوعات الحجرية، ثم أخذت تطبع على الحروف، ومطبعة دير طاميش فوق وادي نهر الكلب، ومطبعة اهدن لرومانوس يمين والخوري يوسف الدبس وغيرها..

أما على الصعيد الرسمي فقد ندب داود باشا يوسف الشلفون لإنشاء مطبعة لمتصرفية لبنان، فأنشئت المطبعة اللبنانية سنة ١٨٦٣ التي تولى تدبيرها ملحم النجار، ثم نقلها إلى دير القمر سنة ١٨٦٩، وفي هذه المطبعة طبعت جريدة لبنان الرسمية، وكان يحررها حبيب خالد.

الطباعة في مصر

كان أقدم مطبعة ظهرت في مصر هي مطبعة الحملة الفرنسية التي جلبها بونابرت معه عام ١٧٩٨ لطبع المنشورات والأوامر بالعربية، وسميت المطبعة الأهلية، وقد ظلت هذه المطبعة تعمل في القاهرة حتى انسحاب الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١

بقيت مصر بعد خروج الفرنسيين، عشرين عاماً بلا مطبعة حتى استقرت الأمور لمحمد علي فأسس مطبعة بولاق عام ١٨٢١ على أنقاض المطبعة الأهلية، وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي الدمشقي، وكان قد أتقن فن الطباعة في روما التي سافر إليها عام ١٨١٥ وقضى في ميلانو أربع سنوات تعلم خلالها صناعة أمهات الحروف وسبكها – وربما جاءت من هنا كنيته – ولما حط رحاله في مصر اشتغل أولاً في جمع طاقم من الحروف العربية والتركية ، وفي تدريب العمال، وكانت أشكال الحروف العربية فيها ثلاثة، وق طبعت جميع الأشغال الخاصة بمصالح الحكومة. كما طبعت أيضاً آجرّومية باللغة العربية الفصحى لأحد علماء القاهرة، ومعجم إيطالي عربي عام ١٨٢٢.

ظل نقولا مسابكي مديراً للمطبعة حتى وفاته عام ١٨٣٠، ثم تولى إدارتها بعده عدد من الأشخاص كان آخرهم حسين حسني، وقد استمرت هذه المطبعة في عملها تسعين عاماً لم تتعطل خلالها إلا بضع سنين، في الفترة بين محمد علي وإسماعيل، وطبعت فيها مئات من أهم الكتب العربية، في الطب والرياضيات

والطبيعيات والتاريخ والأدب والشعر والتفسير والحديث وسائر العلوم.

ظـلت مصـر وليس فيها غير مطبعة بـولاق مـدة أربعين عاماً، إلى أن أنشأ الأنبا كيرلّس الرابع بطريرك الأقباط المطبعة الأهلية القـبطية عـام ١٨٦٠ وكـلف روفائيل عبيد السـوري بإدارتها، ثم تولى إدارتها بعده رزق جرجى، ثم أخوه إبراهيم، وقد أصدرت عدداًمن الكتب الدينية والأدبية. ثم أنشئت مطابع أهلية أخـرى مـنها مطـبعة وادي النيل لمحمد أبو السـعود عـام ١٨٦٦، ومطـبعة جمعيـة المصـارف، ومطـبعة مجلة روضة المدارس، والمطبعة الوطنية في الإسكندرية وغيرها من المطـابع الـتي كان لها الفضل الأكبر في نشر الكـتب، وتيسـير الاطـلاع، والنهوض باللغة والأدب وشؤون التعليم.

الطباعة في العراق

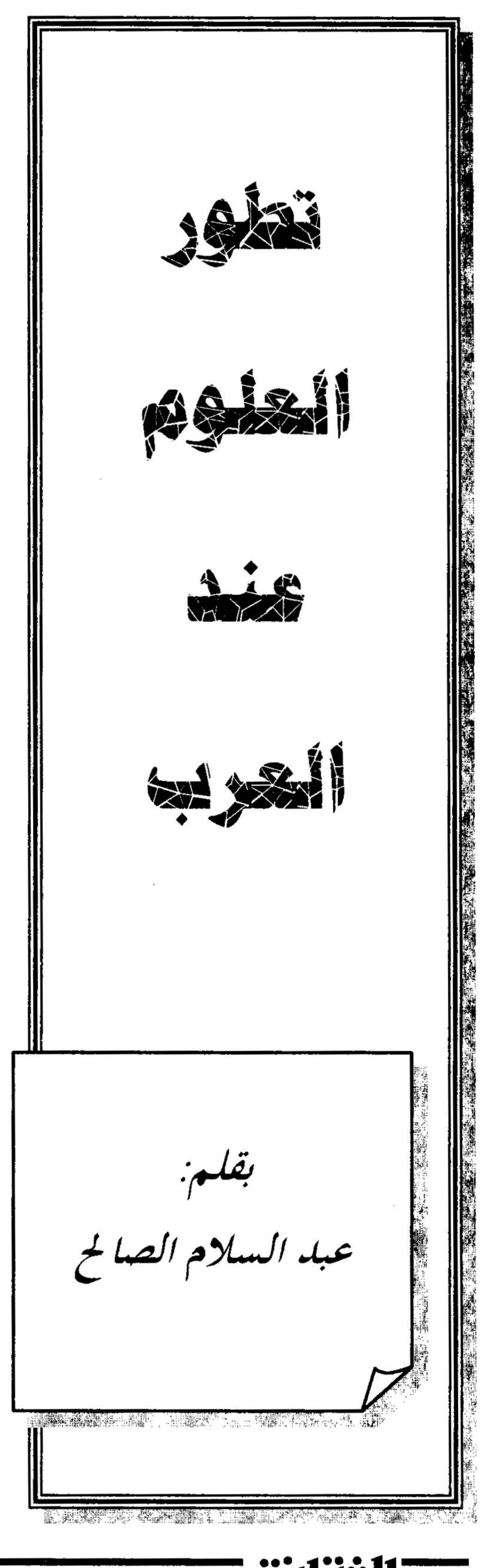
أسسـت أول مطـبعة في العراق عام ١٨٣٠ وصدر عنها كتاب (دوحة الوزراء في تـاريخ وقـائع الـزوراء)، إلا أن الطباعة لم تترسـخ فيها إلا حين أسس الآباء الدومينيكان مطبعة كاملة لهم في الموصل عام ١٨٥٦، كما أسـس الشـماس رافـائيل مـازجي المطبعة الكـلدانية عـام ١٨٦٣، وظهرت في كربلاء مطبعة حجرية سنة ١٨٥٦ طبعت فيها مقامات الشيخ محمود الألوسي، ثم أنشأ الميرزا عباس مطـبعة حجـرية أخرى في بغداد عرفت باسم مطـبعة كـامل التبريزي وقامت بإصدار بعض المنشـورات، لكنها توقفت بعد خمس سنوات، بسـبب ظهور مطبعة ولاية بغداد عام ١٨٦٩ التي أصدرت جريدة الولاية وبعض المطبوعات الأخرى.

الطباعة في فلسطين

دخـلت الطباعة فلسطين عام ١٨٣٠، وفـي عام ١٨٤٩ أنشأ كيرلّس الثاني مطران الأرثوذكـس أول مطـبعة فـي القدس عرفت بمطـبعة القبر المقدس، وانحصرت مطبوعاتها فـي الكتب الدينية والمدرسية، وفي نفس العام أسـس الآباء الفرنسيسيون في القدس مطبعة لهم أيضاً.

أما بالنسبة لباقي الأقطار العربية فقد دخـلت الطـباعة اليمن عام ١٨٧٧ والمملكة العـربية السـعودية عام ١٨٨٢ والأردن عام ١٩٢٢ والكويت عام ١٩٤٧..

لقـد أسـهمت المطـابع فـي تنوير الأذهـان، فوفـرت الكتاب للناس على اختلاف طـبقاتهم، وقديمـاً كان طالبو العلم والمعرفة يتجشـمون السـير والسُّرى سعياً وراء كتاب مخطـوط يقرؤونه ثم يعودون، وصاحب الخط والجَـلَد كان ينسخ كتاباً، وثمة فريق من ذوي اليسـر كـانوا يستنسـخون الكـتب لقاء أجر يؤدونـه، أما الفقير المعدم الذي لا يعرف من يعيـره كـتاباً، ولا يقـدر أن ينفق الوقت في النسـخ، ولا يمـلك ما يستنسخ به الناس، فقد حـرم نعمـة المعرفة، إلى أن كانت المطبعة، فمـلأت فـراغاً، وبسـطت للجميع زادها، فعم العـلم، وذاعت الصحف في الناس تحمل إليهم زبدة التجربة الإنسانية في ميادين الفكر عامة.



تطور العلوم عند العرب

بقلم:
عبد السلام الصالح

إن من ينظر إلى تاريخ العلوم والتقنية في مراحله العديدة والمختلفة في ازدهار وانحطاطه في تقدمه وأزماته وفي انتقاله من أمة إلى أخرى لم يخف عليه المعنى الواحد والبعيد لهذا التاريخ المتشعب.

تاريخ العلوم والتقنية منذ كان مرتبطاً بالسحر والكهانة إلى أن أصبح عليه الآن وبهذا التطور الهائل يعبر عن نزوع الإنسان إلى الحرية والاستقلال في وجوده وعقله عن طريق السيطرة على العالم الخارجي.

فالإنسان كان ينظر إلى الأرض وبنوع خاص إلى السماء كمجال تعمل فيه قوى إلهية قوية وخفية هذه القوى تخفيه وتتجاوز قدرته وبالتالي تضعه تحت السيطرة (سيطرة الطبيعة) لكن الإنسان استطاع وبشكل تدريجي وفي محاولات نادرة وبطيئة أن ينظر إلى الطبيعة نظرة موضوعية يحاول تعليل الحوادث (لا تعليل دينيا) تعليلاً يعتمد على طبيعة الموجودات في ذاتها ومبادئها.

واخذ الإنسان يكتشف تدريجياً أن الموجودات تخضع إلى نظام يمكن تحليله وتعيين أسسه، فبرز مفهوم العلم كمنهج وموضوع ثم كنظام يعلل لنا في قضايا ترتبط فيما بينها ارتباطاً داخلياً ووجوبيا.

إن العلوم في واقعها الحالي وفي تطبيقاتها التقنية قد أصبحت العامل الرئيسي ليس فقط في البلدان الغربية المتطورة لكن في كل البلدان (بلدان العالم) وبشكل أصبحت معه العلوم التقنية هدف: لكل أمة أساس كل تطور حضاري.

ولا ننسى أن الفضل للعلوم والتقنية في أنها ربطت الأمم فيما بينها، فامتد نظر الإنسان إلى أبعد من حدود بلاده إلى العالم كله وبكامله.

فالإنسان المعاصر يؤمن بقدرته على توسيع آفاق العلم والمعرفة إلى أبعد وأقصى حدود العالم وعلى تجهيز أدق الآلات لبلوغ هذه الغاية، كما إن العلم سخر للإنسان قوى الطبيعة ووضع علاقاته الفردية والاجتماعية

مــع الآخرين على أسس علمية كما أنه مكنه في التأثير حتى في الحياة.

مختصر حول الحركة العلمية العربية

إنــه لجديــر بالإعجــاب والإكبار تلك النهضــة العــلمية والعملية التي أنتجها العرب والمســلمين فــي العصور الذهبية الراقية، إن القــوة المزدوجة الدافعة إلى المجد الحضاري مؤلفــة من عنصرين وهما العالمية والشمولية وهذا ما نجده في أسس الحضارة العربية.

وتتجـلى هــذه الحقيقــة في المجال الفكري في عدة نقاط وأهمها:

١- امتصاصــهم العلم والمعرفة من أي منبع وهــذا يــدل عــلى الانفــتاح على الحدود الفكرية.

٢- السعي الحثيث لاكتساب الكماليات الفكرية والإنسانية في كل مجال من مجالات الحياة وفي كل ميدان من ميادين العمل.

٣- قبول الحق من أي مصدر ظهر.

العــلوم تســربت إلى العرب من بقايا عــلوم القبط واليونان والسريان بعد أن توطدّ أمــر الخلافة وأخذت الجيوش تتقدم في إفريقيا إلى الأندلــس وفي الشرق إلى ما وراء السند وســمرقند وكانت في إنطاكية والرّها ونصيبين وحــران أول الفــتح مــدارس عامرة، تشبّع أســاتذتها بالــثقافة اليونانية وفلسفة أرسطو والعلوم والطب والمعرفة عند القدماء.

ولــنفرض أن حدودهــم الفكرية كانت مغـلقة وعقولهم كانت منطوية على نفسها لا تتقــبل الحقــائق العلمية التي تأتيهم من الأمم والشــعوب الأخرى غابرة كانت أو حاضرة لما بــلغوا ما بلغوا من مجد عظيم في أقصر حقبة عرفها تاريخ الحضارات الإنسانية.

وللحقيقة أن المؤرخ الفرنسي العلامة (غوســتاف لوبــون) يقــول في كتابه حضارة العــرب: "إن حماســة المســلمين في دراسة المدنية اليونانية اللاتينية مدهشة حقيقة"

إذن إذا كانت هناك أمم قد تساوت هي والعرب في ذلك فأنك لا تجد أمة فاقت العرب.

ويقول (غوستان لوبون):

"كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساســاً لثقافة متعلمي العرب في الدور الأول وكــان هــؤلاء كــالطلاب الذيــن يتلقون في المدرســة مــا ورثه الإنسان من علوم الأولين وكان اليونان أساتذة العرب الأولين إذن، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع والنشاط لم يكــتفوا بحال الطلب الذي اكتفت به أوروبا في القرون الوسطى فلم يلبثوا أن تحرروا من ذلك الدور الأول"

إذن لــم يلــبث العــرب بعد أن كانوا تلاميــذ معتمدين على كتب اليونان أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب.

فــلما آل العــلم إلى العرب حولوه إلى غيــر ما كان عليه، فتلقاه ورثتهم مخلوقاً آخر وبذلك أنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها.

لــو أردنــا أن نصف الحركة العلمية والــثقافية وأشــهر القــائمين بها في العصر الإســلامي صــدر الإســلام حتى نهاية الدولة الأموية وجدناها اتجهت في ثلاثة اتجاهات:

حــركة ديــنية ونعني بها البحث في الشــؤون الديــنية مــن تفسير القرآن وحديث وتشريع وما إلى ذلك.

حــركة تاريخيــة تعتمد على القصص والسير ونحو ذلك.

حركة فلسفية في منطق وكيمياء وطب وما إليها.

هــناك عــندما نقــول حركة علمية لا نقصــد بذلــك علوم منظمة لها أبواب وفصل وفهارس فإن هذا العصر لم يصل إلى مثل ذلك وإنمــا نعــني النواة التي تكونت حولها العلوم ولــو أردنا أن نلقي الضوء على هذه الحركات الثلاث ونصفها وصفاً إجمالياً:

الحركة الدينية

لا شــك أنهــا أكبر الحركات وأوسعها نطاقــاً فقد أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيــه ويفســرون آياتــه ويســتنبطون منه

الأحكام وكذلك فعلوا في الحديث. طبعاً بدأت هذه الحركة في حياة رسول الله ﷺ ثم أخذت في الاتساع بعده وقام أصحابه بقسط وافر منها.

ومن البديهي أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا مختلفين اختلافاً كبيراً في درجتهم العلمية كاختلافهم في الفضائل الأخرى، اشتهر من الصحابة ست أو سبعة وهم الطبقة الأولى في العلم وهم عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة.

أما الطبقة الثانية فكانوا عشرين ونحو مائة وعشرين من الطبقة الثالثة والمصدر هنا هو كتاب الإصابة في معرفة الصحابة سيطول بنا الحديث لو عددنا أسماءهم وبينا نسبهم.

إذا ألقينا نظرة على الطبقة الأولى بعد قراءة تاريخهم العلمي وجدنا شخصياتهم العلمية مختلفة مثلاً عمر بن الخطاب لا نجد له أموالاً كثيرة في تفسير القرآن ولا مكثراً في جمع الحديث ولكن ميزته الكبرى هي قوته الفطرية في الحكم على الأشياء أصابته في معرفة العدل والظلم فعقل عمر ابن الخطاب عقل قضائي كان يفتى الناس حتى في حياة رسول الله ﷺ، رويت عنه أحكام كثيرة في مشكلات المسائل.

أما ابنه عبد الله فكان على العكس هو أحد علماء الصحابة فهو يعطينا صورة علمية عبر صور عمر رضي الله عنهما، فهو يجمع الحديث ويتحرى ألفاظ النبي ﷺ بدقة عالية كما أنه اشتهر بثقته في رواية الحوادث التاريخية التي وقعت في صدر الإسلام، فهو أذن كثير الجمع ودقيق النقل. فهو بالإضافة إلى كل ذلك واسع الاطلاع في نواح مختلفة فهو يعرف الشعر وانساب وأيام العرب فكان يعلم ويتعلم.علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليس هناك من الشخصيات في ذلك العصر ما دار حوله الجدل وافرط فيه المحبون والكارهون واختلف حوله المختلفون وتأسست من أجله المذاهب الدينية كالذي كان لشخصية علي كرم الله وجهه، فقد رووا عنه ٦٨٦ حديث مسند إلى رسول الله ﷺ لم يصح منها إلاّ نحو ٥٠ خمسين من كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم، ونسبوا إليه ديوان شعر، ونسبوا إليه ما في نهج البلاغة وهو يشتمل على كثير من الخطب والأدعية والمواعظ والحكم.

على كل حال إذا رجعنا إلى كتب السير (الموثوق بها) كطبقات ابن سعد (الطبقات الكبرى) وهو مصدر هام عند المؤرخين (فهو مصدر هام عند ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق، وعند الذهبي في تاريخ الإسلام – وتجريد أسماء الصحابة – وسير أعلام النبلاء) وعند ابن حجر في (الإصابة – وتهذيب التهذيب). هو شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكنعاني العسقلاني المصري الشافعي ولد سنة ٧٧٣ هجري وتوفي سنة ٨٥٢ هجري) وينقل عنه ابن كثير.. الخ

نرى أنه كان ذلك ذا عقل قضائي فقد ولاه رسول الله ﷺ قضاء اليمن وله أراء ثبتت صحتها في مشاكل قضائية عديدة حتى قيل فيه (قضيه ولا أبا الحسن لها) وحكى علقمة عن عبد الله قاله (كنا نتحدث أن من أقضى أهلي المدينة علي) وفوق كل ذلك كان يهتم بالقرآن الكريم ويعرف معانيه وفيم نزل حتى زعموا أنه كتبه على تنزيله، وهو أستاذاً لعبد الله بن العباس وعند الموازنة والمقارنة بينهما يقولون إن عبد الله بن عباس كان أعلمهم بالقرآن وكان علي أعلمهم بالمبهمات. (الطبقات لابن سعد).

ويطول بنا القول لو وصفنا الميزة العلمية لكل مشهوري الصحابة ولكن نقول إجمالاً إن تلك الشخصيات تبين أشهر النواحي العلمية، وسأذكر عالمين لكل منهما خاصة في العلم وهما عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي.

عبد الله بن سلام: كان يهودياً وإنه كان مثقفاً بالثقافة اليهودية وأسلم على أثر الهجرة النبوية إلى المدينة نقل المسلمون عنه كثيراً من الأقوال في المسائل التاريخية الدينية.

سلمان الفارسي: تنقل في اديان مختلفة قبل أن يسلم، كان مجوسياً مخلصاً للمجوسية ثم نصرانياً ومتصلاً بأتقى رجالها، ومن ثم كان عبداً مملوكاً ليهودي من بني قريظة ولكنه لم يتهود ثم أسلم فأخلص في اسلامه.

تنقل قبل إسلامه في بلاد كثيرة فهو من أصبهان ثم انتقل إلى الشام ثم إلى الموصل ثم إلى نصيبين ثم إلى عمورية (أرض الروم) ثم إلى الجزيرة العربية فنزل بوادي القرى ثم انتهى إلى المدينة فأسلم.

إذن كان مسلم بعلم ديانات مختلفة وعادات وتقاليد متنوعة ومتباينة ومختلفة وهذا القدر يكفينا في الدلالة على أنه كان بين الصحابة حركة علمية (أكثرها ديني) وأنه كان لها نواح مختلفة وشخصيات مختلفة.

وهؤلاء الصحابة (العلماء) تفرقوا في الأمصار أنشئوا حركة علمية في كل مصر نزلوا به وكونوا مدارس وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم وينقلونه إلى غيرهم.

الحركة التاريخية

لسنا نعني بها حركة تأليف الكتب التاريخية وإنما نعني بها ما انتشر في المملكة الإسلامية في هذا العهد من أخبار الأمم الماضية والأجيال الغابرة والأحداث التي كانت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء من بعده.

وقد نبعت هذه الحركة التاريخية من جملة مصادر:

شعور بعض الخلفاء بالحاجة إلى التعرف على أخبار الملوك في الأمم الأخرى وسياستهم ونظامهم وكان ضرورياً بعد أن اتسعت المملكة الإسلامية هذا الاتساع الكبير.

وهو الأهم أن كثيراً من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ دخلت في الإسلام فأخذوا يدخلون تاريخ أممهم ويبثونه بين المسلمين، وأغلبهم عصبية لقومهم.

فمثلا كثير من اليهود أسلموا وهم يعلمون كثيراً من تاريخ اليهودية وأخبار الحوادث حسبما روت التوراة وشروحها فأخذوا يحدثون المسلمين بها وهؤلاء ربطوها بتفسير القرآن الكريم أحياناً وبتاريخ الأمم الأخرى أحياناً.

كذلك كان للفرس تاريخ وكان لهم أساطير فلما أسلموا رووا تاريخهم وأساطيرهم وكذلك النصارى فكانت لهم روايات وأساطير عن الأمم المختلفة مبثوثة بين العرب والمسلمين وهو مصدر من مصادر الحركة التاريخية عندهم.

أن العرب والمسلمين بدءوا من أول أمرهم يجمعون الحديث وفي الحديث مناح شتى من القول ففيه ما كان يفعله النبي ﷺ وأصحابه من عبادات وتشريع وتعاليم ومواعظ وإرشادات وفيه قسم من التاريخ لا يستهان به وأحاديث عن حياة النبي ﷺ في مكة وهجرته وحياته في المدينة وغزواته وأعماله وأعمال أبي بكر وفتوحات عمر.. الخ..

كل ذلك يدلنا على انتشار حركة تاريخية واسعة وإن لم تصبغ بالصبغة العلمية الدقيقة.

الحركة الفلسفية (منطق - كيمياء - طب..)

مع ميل العربي للغزو والنهب وتهديده للممالك الممدنة على التخوم ومهاجمته لها من حين لآخر فإن حبه للوفاء وشعوره بالشرف وتقديره للوعد الذي يصدر منه.

جعله يستطيع أن يتعامل مع من حوله من الأمم ويمهد الطريق لتجارة واسعة منظمة وزاد في نجاحهم علمهم بالصحراء وسبله ومواضع الأمن والخوف فيه وقدرتهم على تحمل القيظ وعناء السير والترحال والسفر فيها بالإضافة إلى الذكاء الفطري وأمور أخرى كثيرة..

وهذه التجارة لا تقتصر على تبادل المنتجات والعروض والنقود بل كانت تتعداها إلى أمور معنوية وأدبية ودينية وثقافية أخرى. فنرى العرب استفادوا من مدنيّة الروم والفرس ومن آدابهم وعلومهم. وكانت الحيرة وعرب

الغساسنة أرقى عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة والسبب مجاورتهم مدنيّة الروم والفرس واتصالهم (بالفرس الحيرة) (الروم الغساسنة) اتصالاً وثيقا.

فتسربت إلى العرب اللخميين في الحيرة علوم اليونان وآدابهم وذلك من خلال أسرى الحرب الرومانيين وذلك أن حكومة فارس أنشأت في عهد هرمز الأول مستعمرات لهم. وكان من بين الأسرى من يفوق الفرس في الفن والهندسة والطب ومن هؤلاء الأسرى من نزل الحيرة (ويظن أهل الحيرة أن هؤلاء هم منبع النصرانية).

وعلى كل حال كان في الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون إليها ولبّى الدعوة منهم هند زوجة النعمان الخامس وقد أنشأت ديراً سمي بدير هند.

أما الغساسنة فكانوا في الشام في حوران والبلقاء فكان بينهم وبين المناذرة عداء شديد وكثيراً ما وقعت حروب بينهم وأهم أمراء الغساسنة (الحارث بن جبلة) وقد عينه الإمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩م أميراً على جميع القبائل العربية في سوريا ومنحه لقب فيلارك وبطريق **Phylarch and Patricius** وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور وكان الحارث نصرانياً على مذهب اليعاقبة وكان يعد حامياً من حماة كنيستها وقضى أكثر أيام حكمه في محاربة المنذر الثالث أمير الحيرة.

ومن ذلك نرى أن اللخميين في الحيرة الغساسنة في الشام عمروا قروناً وبلغوا من المدنية شأوا بعيداً (إذا ما قيس بحالة العرب في الجزيرة العربية) والسبب كما ذكرنا اختلاطهم بالحضارتين الفارسية والرومانية حتى أنهم كانوا يتحدثون بلغاتهم والسبب الجوهري هو الدين فدينهم أرقى من دين غيرهم من العرب.

فهم إما نصارى أو مجوس وهذا كله كان داعياً إلى خصب في الذهنية وهذا ما جعل منهم حكماء وشعراء فحول أمثال عدي بن زيد الحيري، فنرى أن بلادهم أصبحت ملتقى الشعراء والأدباء والحكماء.. فهذا النابغة والأعشى وحسان وغيرهم في ترحال دائم إليهم.

ففي العصور المسيحية الأولى كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين لأنهم رأوا من الضروري أن يؤيدا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين فلجئوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان فتسربت إلى النصرانية فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهم.

وقد امتاز الشرق بأن أنشئت فيه مدارس لاهوتية متأثرة بالفلسفة اليونانية تقليداً للأكاديميات اليونانية وأشهر تلك المدارس مدرسة الإسكندرية التي كانت في بدء القرن الثالث للميلاد، وأنشئت مدرسة في إنطاكية سنة ٢٧٠م، وفي نصيبين سنة ٢٩٧م.

وكان النساطرة على الأخص أكثر إلماماً بعلوم اليونان وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية عن اليونان، كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية وكان رجال الدين النساطرة أطباء في بلاد فارس.

إذن فمن أهم عوامل انتشار الثقافة الأجنبية في جزيرة العرب انتشار الديانتين اليهودية والنصرانية.

كان لكل من العلوم المنقولة والعقلية منهج في البحث والتأليف فالبحث والتأليف في العلوم النقلية اعتمد على الرواية وصحة السند أما العلوم العقلية فاعتمدوا على معقولية الحقائق وامتحانها إما عن طريق المنطق وإما عن طريق التجريب.

وهناك عوامل شخصية أثرت في العلوم لو لم تحدث لأخرت سير العلم زمن طويل، مثلاً: أبو جعفر المنصور يشكو ألماً في معدته فاهتم كثيراً في الطب وشجع كثيراً في هذا المجال بالإضافة إلى اهتمامه الخاص بالتنجيم وعلم الفلك.

يقول ابن خلدون في مقدمته (إن العلوم صنفان صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه).






شعر: أ. جابر خير بك

مهرجان المحبة في ٢٠٠٤/٨/١١

بلدي ولي في كل شبر ملعب
فأنا المحبُّ وأنتِ بعدكِ زينبُ

زمناً تقاسمنا الغرامَ وشدني
حسنٌ وتيمني النعيم الطيب

ها قد رجعت إليك بعد تشردي
وإلى مغانيك الجميلة أهرب

شابتْ من السفر الطويل جوانحي
وكبا بأعباء الدروب المنكب

قطَّعت بالترحال عمراً كاملاً
من نصف قرن في النوى أتعذب

وحملت في عينيَّ صورة حلوتي
أشدو بسحر رياضها وأشبب

تتراقص الأحلام في نِعَمِ الكرى
وتطوف أحلى الذكريات وتُطْرِبُ

رسمتْكِ بالألوان ريشةُ خالقٍ
فبدوت أجمل لوحة تتذهب

سبحان من زرع المفاتن والحلا
في كل رابيةٍ تربع كوكب






تغفيــن فــي حضــن الجبــال ســعيدة

ولكــل ملــتاحٍ بقــربك مطــلب

يــترنح الشــط الجميــل كأنــه..

حســناءُ تــرفل بالجمــال وتســحب

وتــرشٌ بســمتَها وســحرَ فــتونِها

فيســبِّحُ المــولى فــؤادٌ معجــب

تقــتات مــن بصــري خــدودٌ غضــة

ويشــوقني جيــدٌ وثغــرٌ أشــنب

وأنــا وحــبِك. والــتذكر قاتــلي

قــد جــئتُ عــن شــوقي المــبرِّحِ أعــرب

لا لــن يفرِّقُــنا التــباعدُ والــنوى

فأنــا عــن الأحــباب لا أتغــرب

مــأواهمُ قلــبي وريــفُ نواظــري

فــبكل ثانيــةٍ أشــوق وأرغــب

وأحــنُّ للــبحر المخــبأ فــي دمــي

دهــراً. وعــن حــبي الدفيــن أنقِّــبُ

فالفاتــنات الشــقرُ فــوق رمالــه

حــورُ الجِــنان عــلى الــثرى تتقــلب

نهــدٌ تمــرَّغ بالــرمال وآخــرٌ

فــوق الــترائب للســما يــتوثَّبُ

لا تعذلــي مــن ظــلَّ صــباً والهــاً

بعــد المشــيب. وفــي رضــاك المــأرب

تــتزاحم الآهــات إن خطــرَ الهــوى

فيــرفُّ طيفــك فــي الضــمير ويعــذب

* * *








يا درّةَ البحرِ الجميل تلفتي..

قد عاد عاشقُك الوفيُّ المتعب

هل تسمحين بضمة فأنا هنا

طفلٌ يلوبُ على الحنان ويسغَب

لا تنكري حبي الكبير ولو غزا..

بُرْدَ الشباب الغضِّ شَعرٌ أشيب

ذكراك مازالتْ على ألم النوى

زوادتي. ومن المدامع أشرب

يستيقظ الشطُّ الوديعُ بخافقي

وينام في عيني الغروب الأطيب

إن عدتُ أسأل عن زمان طفولتي

وعن الرفاق وكيف صار الملعب؟

وعن الرياض الفيح كيف خيامُها؟

عهدي بها بالزائرين ترحب

عهدي بها للحبِّ تفتح صدرها

وإلى البطولة والسماحة تُنْسَبُ

في كلِّ شبرٍ فارس ومناضل

وبكل زاوية كميٌّ أغلب

إن مرَّ طيفُ الراحلين مُسَلِّماً

جُنَّ الفؤاد وقطَّعوه وذوَّبوا

فأعود للذكرى ألمُّ شَتاتَها

فعبير ما ترك الرفاقُ محبب

تفترُّ عن ثغري ابتسامة تائه

ويطوف بالأحناء خوفٌ مرعب

مرَّتْ أمانينا العذابُ وليتها

ظلت تعيد صدى السنين وتسهب







تَمــــلي لــــيَ الكـــأس الظمـيـــة بالطـــلى
وتجـــود بالعطـــر الـــزكيِّ وتســكب
أســفي عـــلى العمـر الـــذي أودت بــــه
أحـــداث قـــرنٍ والحرائـــرُ تـــندب
مــا غــاب عـــن وطـــني الممـزقِ غيهــبٌ
إلاّ ولاح عــــلى المشـــارف غيهـــب
صـــورٌ وأحـــداث تمـــرُّ كأنهـــا..
إبـــرٌ تفـــتت بـــالفؤاد وتـــثقب
قَـــرنٌ مضـــى والعُـــرب فـــي أمصـــارهم
كـــدُمىً بـــلا روحٍ.. وغاصـــبُ يغصـــب
نـــاموا عـــلى الـــذل الـــرخيص وضـيعوا
عـــزّاً عـــلى ظهـــر المجـــرة يـــركب
تـــركتْ لـــنا الأسَـــلافُ مجـــداً زاهـــراً
والشـــمس عـــن أرجائـــه لا تغـــربِ
قحطـــانُ يســـألنا الوفـــاءَ معاتـــباً
ويضـــجُّ مـــن ألـــم الـــتفرق يعـــرب
وقـــريش تغـــرق بـــالدموع حزيـــنةً
وتـــئن مـــن عـــار الـــتخاذل تغـــلب
نـــامت نواطيـــر الكـــروم عـــن الحـــمى
فســـعى إلى نهـــب المواســـم ثعـــلب
لـــو أنهـــم ســـهروا عـــلى أعـــنابهم
مـــا جـــاءهم هـــذا المخـــاتلُ يـــنهب

* * *

يـــا قـــادة الـــدول الشـــقيقة حســـبكم
أن تعـــلموا أن الـــنوازل تقـــرب







فـــإلى مـــــتى تـــــتفرقون شـــــرادماً
فغـــداً ســــيغرق بــــالجميع المـــــركبِ
والمـــوت أصـــبح فـــي الأســـرَّة شـــاهراً
ســيفَ الــرَّدى. وعــلى العــروش ستصــلبوا
عـــودوا إلى الصـــف الموحَّـــد واعـــلموا
أن الـــــتراحُم والتضـــــامن مذهـــــب
فـــبه نســـــود ونســـــترد حقوقـــــنا
ونقـــرُّ عيـــناً فـــي الحيـــاة ونكســـب
وإذا تركـــــنا الســـــاح مـــــاتت أمـــةٌ
وقضـــى عـــلى الأمجـــاد وغـــدٌ أجـــرب
أعوانـــــه دخـــــلوا المدائـــــن خلســـةً
ومـــن الجحـــور المظـــلماتِ تســـربّوا
شُـــدُّوا الـــركاب عـــلى الصـــوافنِ وافـــتحوا
بـــاب الجهـــاد. فـــأين أيـــن المهـــرب؟
فـــإذا توحـــدت الصـــفوف وضـــمنا
شـــرف الفـــداء فإنـــنا لا نُغـــلب
فالحـــاقدون عـــلى الحـــدود تجمعـــوا
والســـارقون المـــارقون تأهـــبوا
فـــإلى مـــتى نحيـــا بغيـــر ضـــمائرٍ
وبغيـــر إحســـاسٍ نجـــيء ونذهـــب
فـــالموت يحصـــد أهلـــنا وديارنـــا
ونظـــلُّ نصـــمت لا نـــردُّ ونضـــرب

* * *

يـــا فـــتية القـــدس الـــتي فـــي ســـوحها
تـــنمو الـــبطولة والصـــمود الأصـــلب
فرســـانها كتـــبوا الملاحـــم آيـــةً
وتـــبوأوا عـــرش الخـــلود ودرَّبـــوا







رَدُّوا لــــنا الوجـــه المعفّـــر بالأســـى

وتطـــلعوا للأمـــس فهـــو الأرحـــب

أيــــام داســـت كـــل صـــقعٍ خيلـــنا

وتقـــلدتْ تـــاجَ العدالـــةِ يـــثرب

وتـــناقل الـــتاريخ عـــن أمجادنـــا

ســـفراً مضـــيئاً والحضـــارة تكـــتب

وتذكـــروا ســـيرَ الذيـــن تســـاقطوا

فـــي الســـاحِ وابتســـموا ولـــم يتهيـــبوا

فـــالموت صـــعبٌ فـــي المعـــارك والفـــدا

لكـــنه عـــند الهـــزائم أصـــعب

* * *

يـــا حـــلوتي والحـــزن يـــأكل مهجـــتي

نـــابٌ يـــلوك وألـــف ظفـــر ينشِـــب

مـــا عـــالجتْ كفـــي الجـــريحة مخلـــباً

إلاَّ وغـــاص إلى الجـــوارح مخـــلب

مـــاذا أحـــدّث والأســـى يجتاحـــنا

وعـــلى الخطابـــة والـــبلاغة نصـــلب

شـــرف المـــنابرِ أن نعـــدَّ عيوبـــنا

مـــن لا يجاهـــرُ بالحقيقـــة مذنـــب

فالمؤمـــنون الصـــادقون تفـــرّقوا

والـــزائدون عـــن المحـــارم غُيَّـــبُ

والســـاح بـــاتَ مـــن الصـــوافنِ فارغـــاً

فـــالخيل مـــن وجـــع المـــرابط تغضـــب

والســـيف مـــلَّ مـــن القـــراب ومالـــه

مـــن ســـاعد صـــلب يســـلُّ ويســـحب

بغـــدادُ مـــزقها فجـــورٌ عواهـــر

وســـطا عـــلى الـــنجف المقـــدس عقـــرب





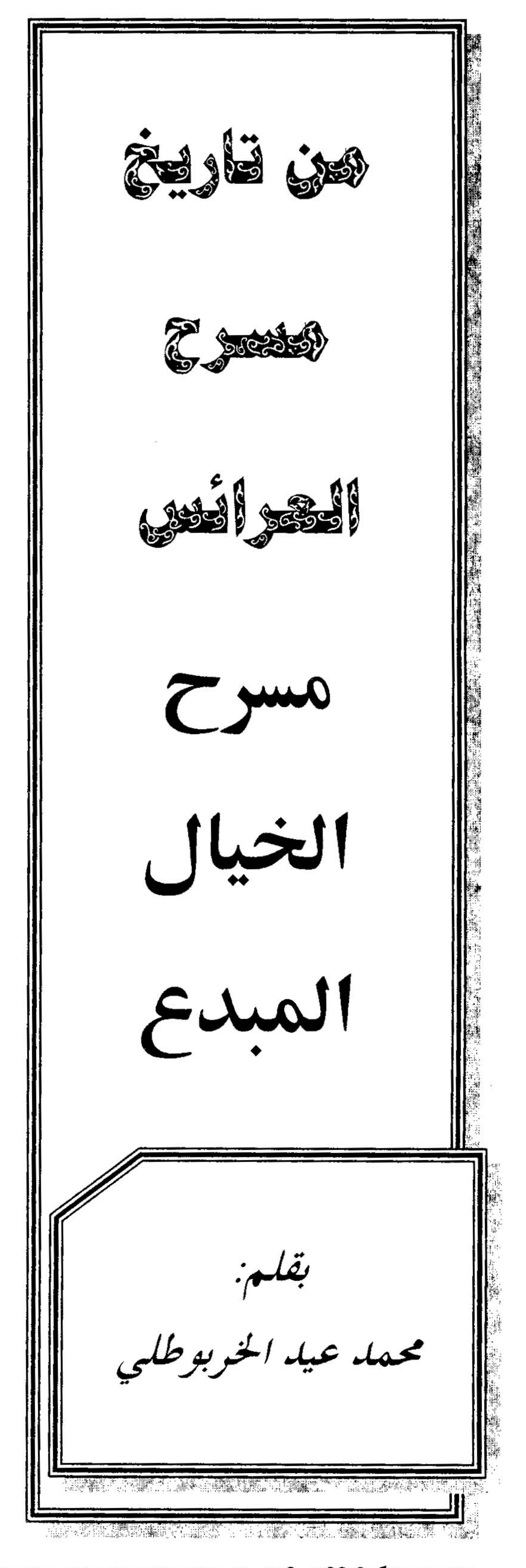

والغاصــبون هــناك فــوق جراحِــنا
نــاموا، وفــي القـدس الشـريف تنصَّبوا
فــإلى مــتى نرضــى بمــوتٍ مخجــلٍ؟
وإلى مــتى خَــوضَ الــردى نتجــنب

* * *

عفــواً حبيبــتيَ الحــنونةَ أعــذري
شــعري فــإني بــالهموم مخضَّــب
قَــدَري وقــد حمــل الضــمير مبادئاً
جُــلّى. فكــم أشــكو وكــم أتعــتب
مــا غــرّني جــاه ولا هــامت بــه
نفســي. ولا شــدَّ المطــامح منصــب
فأنــا بحــب الصــادقين مــتيمٌ
ولكــل عشّــاقِ الفــدا أتعصّــبُ
ولقــد نكــأتُ لــك الجــراح فسامحي
قــلمَ المحــبِّ فإنــه لا يكــذب
ويغــصُّ بالشــكوى إليــك وهــذه
حمــر الدمــوع مــن المحاجــر تهــرب
لكــنْ وحــبكِ لــم يــزل مــتفائلاً
بالنصــر مهمــا خططــوا وتألــبوا
مــازال فــي الوطــن العزيــز فــوارسٌ
وحرائــرٌ فــي كــل يــومٍ تــنجب
فغــداً ستشــرق فــي الوجــود شموسُــنا
ومَعيــن عشــاق الــردى لا ينضــب
فتقبــلي عــذري وتوبــة شــاعرٍ
شــدَّ الــرحال وجــاء ودَّكِ يخطِــب







إن السـبب فـي تسمية هذا الفن بفن العـرائس تـارة وفن الماريونيت تارة أخرى يعـود للعداء بين فرنسا وبريطانيا في القرون الماضية للحروب التي دارت بينهما، فحاول كل منهما إعطاء الصبغة القومية لهذا الفن على أساس أنها هي التي أنتجته وعلى هذا الأساس أطـلق عـليه فـي بريطانيا وأميركا اصطلاح مسـرح العـرائس بينما أطلق عليه في فرنسا وإيطاليا وعموم أوروبا اصطلاح الماريونيت ، ولكن الجميع لم يكن يعلم أنه فن مصري قديم ولد في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد حاول الأميـركيون فـي أواخـر القرن التاسع عشر الاسـتفادة مـن هـذا الاصطلاح المزدوج بأن أطـلقوا اصطلاح الماريونيت على كل العرائس التي تتحرك بالخيوط، من ثم خصصوا اصطلاح العـرائس ليطلقوه على أي نوع أخر وخاصة ذلـك الـذي يعمل بتحريك أيدي اللاعبين من أسـفل مـثل جـودي وبانش الذي انتشر في أوروبا وأميركا على نطاق واسع ، وهو النوع الـذي يشـبه – الأراجوز – في مصر والذي اشـتهر بـه الفنان (محمود شكوكو) وقد قسم الـناقد – جيمس هايز – مسرح العرائس إلى ثمانيـة عشـر نوعـاً ولكن اشهرها عرائس الخيـوط وعرائس اليد وخيال الظل والعرائس الـتي تـتحرك بالعصا الطويلة ، وهذه الأنواع الأربعـة هي التي لاقت رواجاً في جميع أنحاء العالم.

عرائس الفن الدرامي

هـناك فرق شاسع بين العرائس الت تنـتج لمسرح العرائس خصيصاً وبين الأشد الأخـرى الـتي تنتج ليلعب بها الأطفال والتي

تــزين بهــا المنازل ، والعرائس التي تتحرك بالزنــبرك وتحــاكي الإنسان في حركاته لأنها صــنعت فقط للتسلية وللقيام بحركات مكررة لا علاقة لها بالفن الدرامي ، أما عرائس المسرح فتخضــع لمواصــفات معقــدة بهــدف إحداث تأثيــرات درامية في نفس المتفرج ، فلا بد أن يتمشــى تركيبها مع طبيعة الدور الذي ستقوم بــه عــلى المسرح من حيث الحجم والحركة والإيماءة والتكوين ، وقد يتساءل البعض عن الســبب في انتشار مسرح العرائس بينما يوجد ممثلون يستطيعون القيام بهذه الأدوار بطريقة أكثر كفاءة وإقناعاً؟ والرد على هذا أن مسرح العــرائس يمــلك إمكانيات فنية ودرامية غير مــتاحة للمسرح العادي ، ففي إمكان المخرج أن يــتحكم في حجم العروسة سواء من ناحية الضــخامة أو الصغر بالنسبة للعرائس الأخرى أو أن يــتحكم فــي أجــزاء مختلفة من جسم العروســة للتأكيد على بعض المعاني المتصلة بالنص والمطلوب إبرازها للمتفرجين ، فالفرق الأساسي بين مسرح العرائس والمسرح العادي أن العروســة في الأول تتشكل طبقاً لمواصفات الدور الذي تلعبه في حيادية كاملة بينما الدور فــي المســرح العــادي يتشكل طبقاً لأسلوب الممثل وشكله وحجمه مهما حاول القيام به في حيادية كاملة بل إن أسلوبه يختلف من عرض إلى أخــر طــبقاً لحالته النفسية والصحية لكن العروســة ليست سوى تجسيداً لفكرة المؤلف التي تتحرك أمام عنون المتفرجين.

مولد فن العرائس

جــاء فــي كــتاب تاريخ الماريونيت للفرنســي شــارل مــانين عــام (١٨٦٢) أن المصريين القدماء كانوا أول من توصل إلى فن العرائس في القرن الخامس قبل الميلاد وكانت العــرائس مفصــلية الأذرع والسيقان والوسط بحيث يمنحها هذا مرونة في الحركة والتعبير، وكــان حجــم العروســة يختلف طبقاً لمكانتها الاجتماعية والروحية فمثلاً العرائس التي كانت تمــثل الكهــنة والمــلوك والأمــراء تميــزت بالضــخامة ووضــوح الملامح ووقارها وثقل حركتها ، أما العرائس التي مثلت عامة الشعب والخدم فكانت أصغر في الحجم وملامح وجهها تشــبه وجــوه المهــرجين مــن حيث الألوان المتناقضة والأصباغ الصارخة.

وكــان الكهــنة يشرفون شخصياً على العــرض المســرحي للعرائس بل إنهم تصدوا للــتأليف لهــذا المسرح ، فجاءت مسرحياتهم ديــنية فــي المقــام الأول وزاخــرة بالوعظ والإرشــاد وغالــباً مــا تنتهي بترديد النصائح وبــثها عــلى الحضور وقد وصلت إلينا بعض هــذه النصوص على شكل برديات اكتشفت في حفــريات الجيزة والزقازيق والإسكندرية التي قامت بها بعثات من جامعات أميركية وكندية ، ويــبدو أن فن العرائس في مصر كان أقدم من القــرن الخــامس قــبل الميلاد لأن بعض هذه الــبرديات أشــارت إلى نصــوص قديمــة لمسرحيات اندثرت ولم يعرف عنها شيء، وقد انتشرت في الوجه البحري بعد القرن الخامس قبل الميلاد - خيال الظل - وخاصة في منطقة الــزقازيق، وكان الفنانون المتجولون يشعلون مشاعلهم عند حلول الظلام وراء ستارة بيضاء مشــدودة عــلى قــائمين ثم يقومون بتحريك عرائســهم وإحــداث الأصــوات اللازمة وراء الســتارة بحــث يــنعكس ظــل العرائس على الســتارة الأخرى من حيث أنها مصنوعة من

الـــورق المقوى وذات بعدين فقط ، و قد اغرم بعــض الملوك والأمراء بهذا الفن لدرجة أنهم أجزلوا العطاء لبعض الفنانين ليقدموا عروض خاصـــة فـــي قصورهم وقد تبنى البطالمة هذا الفــن بحيــث انتشـــر انتشـــاراً واســـعاً فـــي الإســـكندرية وورد أن انطونيو عند مجيئه إلى مصـــر أعجـــب بهـ ذا الفن وكان يقضي بعض لياليـــه مـــع كليوباتره في مشاهدة بعض هذه العـــروض وخاصـــة تـــلك الـــتي تـــدور حول الأســـاطير المصرية القديمة والمعارك الحربية الـــتي خاضها كل من تحتمس الثالث ورمسيس الـــثاني، ومقابلة الاسكندر الأكبر لكهنة آمون واحترامه لهم.

عرائس العصور الوسطى

لم يكن مسرح العرائس في أوروبا في العصور الوسطى سوى صورة مكررة لمسرح العرائس عند قدماء المصريين ، فكان الفنانون الجوالـــون يحمـــلون عرائســـهم على أكتافهم ويســـيرون بها في الشوارع وعند الميادين أو أماكن تجمع المارة والصبية ينصبون مسرحهم ويقيمون عروضهم وكانت تدور حول الملاحم والـــبطولات الشـــعبية، وقد تبنت الكنيسة هذا الفـــن ونصـــبت له المسارح في ساحاتها لكي تقدم للجمهور العروض المأخوذة عن القصص الديـــنية وكـــانت معظم المسرحيات تدور حول ميـــلاد الســـيد المسيح فأخذ هذا الفن اصطلاح الماريونيت وهو تصغير لاسم العذراء مريم أو مـــاري ثـــم تطـــورت هذه المسرحيات وأخذت طابعـــاً دراميـاً يصور الصراع بين الخير والشر ففـــي ايطاليـــا قـــاد هـــذا الاتجـــاه الكوميدي – ديـــللارتي – وانتشـــرت بعد ذلك في أوروبا وبـــريطانيا عـــلى نطاق واسع ، ومن هنا فإن شخصيتي – جودي وبانش – كانتا امتداد لهذا الاتجاه يقول كولياء في كتابه المطبوع – عام (١٨٢٨) عـــن فـــن الماريونيت إن بانش كان يمـــثل دور البطل المغوار المثالي في كل شيء الـــذي يضـــع روحه على كفه في صراعه مع الشـــيطان وقوى الشر ، ونظراً للسلطة الدينية فـــإن مســـرح العـــرائس الديني انتشر انتشاراً واسعاً في كل أوروبا.

وبحـــلول القرن السابع عشر الميلادي أصبح مسرح العرائس فناً عالمياً ، وفي القرن الـــثامن عشـــر أقيمـــت المســـارح التي تقدم العـــروض بصـــفة مســـتمرة وثابتة وبأسلوب محترف ومنظم فصار لها جمهورها الواسع.

واســـتمرت هـــذه المســـارح في تقديم عروضـــها حـــتى عصـــرنا الحاضر وفي مدن رئيســـية مـــثل رومـــا وبـــاريس ومارســـيليا ومونـــتريال ونيويورك وحرص بعض العائلات الموســـرة عـــلى تأجيـــره خصيصاً وإحضاره لـــلبيت حـــتى يـــتيحوا الفرصـــة لصـــغارهم لمشـــاهدته، ومـــنها عائلة – جيته – الشاعر والروائي الكبير، وحتى الحصون الحربية كانت لا تخـــلو من مسرح عرائس خاص بها للترفيه عـــن الجنود في أوقات فراغهم وإشعال جذوة الوطنية فيهم بعرض البطولات القومية.

فن خيال الظل

أنتقل خيال الظل إلى أوروبا في القرن الـــثامن عشـــر الميلادي ، عن طريق الشرق الأدنى ، ثـــم أصـــبح فـــناً خاصاً بالأطفال لكي يعلمهم ويمتعهم في القرن التاسع عشر ، وفي أواخـــر القـــرن التاســـع عشر بدأ خيال الظل

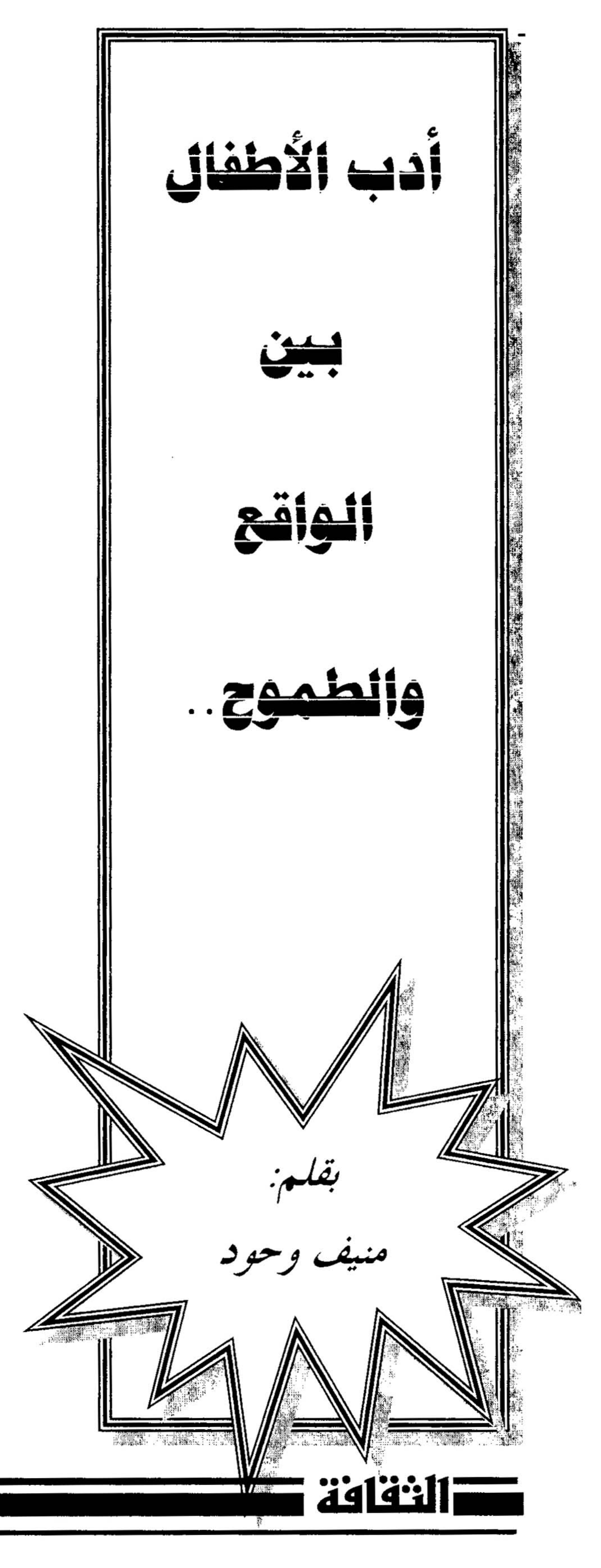
بالاندثار عندما اخترع الفانوس السحري والصور المتحركة بعد ذلك، ولكن الصور المتحركة لم تكن سوى تقليد خيال الظل من جهة الصوت والحركة ، لأن فناني خيال الظل قد برعوا في تحريك العرائس من حيث البعد والقرب ولقطات الوجه المكبرة، والإسراع بالحركة أو إبطائها ، وهو بعينه التكنيك الذي اتبعته السينما فيما بعد.

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي الانتعاش التجاري الضخم لفن العرائس كحرفة مؤدية إلى الثراء ، فقد شهدت أوروبا فرق العرائس الضخمة التي كانت ترحل من عاصمة إلى أخرى لتقديم عروضها ، وفي باريس أقيمت استوديوهات ضخمة لإنتاج العرائس ، وبدأ كبار الأدباء الكتابة لمسرح العرائس بتشجيع من موريس صاند فنان فرنسا، ولكن أخذ النقاد مأخذاً على مسرح العرائس لأن معظم نصوصه اقتصرت على السخرية والتقليد، وكان هذا النقد دافعاً لبعض المؤلفين إلى الاهتمام بما يقدم على مسرح العرائس، كما فعل – ماترلينك – في ألمانيا في مسرحياته الذهنية والفلسفية وكمل فعل – موريس بوشور – في فرنسا عندما قدم مسرحياته ذات الصبغة الاجتماعية والإنتقادية، وكما فعل – جوردون كريج – في بريطانيا في مسرحياته ذات الصبغة الشعرية والشاعرية.

النادي الدولي للعرائس

في عام (١٨٨٩) أنشئ النادي الدولي للعرائس وضم مجموعة كبيرة من المحترفين والمخرجين والفنانين التشكيليين الذين وجدوا إمكانيات ضخمة للتشكيل في العرائس ، وكان مقره في مدينة ميونخ برئاسة – بول بران – وعضوية فنان مهم عن كل دولة ، وقام أعضاء النادي بدراسات وأبحاث شاملة عن هذا الفن ووجدوا أنه يمكن الاستفادة به في التحليل النفسي وخاصة بالنسبة للأطفال ، لأن العرائس المتحركة أمامهم قد تجسد العقد النفسية الكامنة داخلهم وبالتالي تعمل على إخراجها والتخلص منها، ووجدوا أن مسرح العرائس خير معلم للطفل ولتنمية قدراته وتربية ذوقه حتى يشب على حب الفن عامة والمسرح خاصة فالمسرح تعليمي من خلال التسلية خاصة أنه بعيد عن قيود حجرة الدراسة وجفاف شرح المدرس ورتابته، وقد أدرك خبراء الدعاية الجاذبية الكامنة في العروسة فاستغلوها للدعاية عن المنتجات المختلفة ورغم تقدم الفن السينمائي لم يفقد فن العرائس سحره ، بل إنه غزا الأفلام عن طريق أفلام الكرتون التي بنى عليها الفنان – والتر ديزني- شهرته العالمية وأمجاده، وفيها استعمل كل حيل فن العرائس.

ويوضح الناقد – نويل نيلسون – في كتابه – حيل الماريونيت – تأثير مسرح العرائس وسحره على الأطفال ويقول:نظراً لأن خيال الإنسان غير محدود فإن خير وسيلة لإشباعه هو مسرح العرائس الذي يقوم على الخيال المحض المتجسد في العرائس المتحركة التي يمكن أن تفعل أي شيء ، وبهذا يحطم الإنسان كل الحدود التي تحيط بخياله و تمنعه من الانطلاق، وبذلك يشارك العرائس في مغامراتها بل ويتعاطف معها بحيث يحزن لمأساتها ويضحك لملهاتها ويقول الباحث – فيكلين – إن مسرح العرائس لن يندثر طالما أن الإنسان يملك هذا الخيال المبدع، ولا يجد وسيلة إلى تحقيقه إلا فوق مسرح العرائس.



إن الاهتمام بأدب الأطفال هو تعبير عن الاهتمام بالحاضر والمستقبل معاً وهذا الأدب لابد له أن يلبي حاجة الطفل ويساير ميوله وينبض بأحلامه، ويجعله يعيش طفولته ويتمتع بها، وفي الوقت نفسه لابد أن يلبي حاجة المجتمع إلى بناء المستقبل المنشود فماذا عن أدب الأطفال في قطرنا العربي السوري..؟؟

بدأت حكاية هذا الأدب في النصف الأول من السبعينات، حيث اتجه الكثير من الكتاب وخاصة الشباب منهم نحو الكتابة للأطفال ولكن دون وجود خبرة سابقة، أو تجربة يستفيدون منها، لذلك حاول هؤلاء الكتاب التقرب من عالم الطفولة، وبناء عالم الطفل القصص من خلال أدب الأطفال المترجم وبعض قصص الحيوان المتوافرة في تراثنا القديم، وجعلوها المرجع الأساسي لهم. ومع ذلك فإن معظم الكتابات كانت تشكو الضعف أو الإشكاليات اللغوية والتخيل وكانت المشكلة تكمن في كيفية الوصول إلى الطفل وفهم خصوصيته النفسية والعقلية، وذلك نظراً لاستسهال بعضهم لهذا الشكل من الكتابة، فقد اعتبروا أنه أدنى من أدب الكبار دون أن يأخذوا بالحسبان الاختلاف في لغة ومستوى مرحلة عمرية من أخرى.

إن السمة المميزة لأدب الأطفال في هذه المرحلة هي غلبة الطابع الوعظي

والتلقيني للطفل من خلال استخدام الحيوانات والشخصيات الأسطورية وسيلة لذلك، حتى أن أغلب القصص باتت تركز على الجانب الوعظي أكثر مما تهتم بالأسلوب والكيفية التي يمكن من خلالها أن نخاطب وننمي عالم الطفل العقلي والخيالي والوجداني، ونكرس القيم التربوية.

في كل الأحوال يمكن القول إن أدب الأطفال في سورية أدب حديث العهد لذلك لا يمكن للدارس أن ينتهي إلى أسس دقيقة ومعالم واضحة مفصلية تحدد سمات هذا الأدب أو تحدد توجهه الصحيح في المشهد الثقافي العام.

نظرة على واقع أدب الأطفال

القصة: إن القصة بمفهومها الفني تتضمن مقدرة ذاتية على الاستجابة لحاجات الأطفال وميولهم ورغباتهم إضافة إلى إسهامها في تغذية خيالهم وقد استند الأدباء والمربون أيضاً إلى علم نفس الطفل في تفسير مقدرة القصة على شد الطفل إليها ووصلوا بعدئذ إلى أن الطفل ينمو نمواً نفسياً سليماً إذا توافرت له بيئة حافلة بالمثيرات التي تتحدى طاقة الطفل الذهنية وعرفوا أن الطفل يحتاج إلى الأمن والحب والاطمئنان والمرح، والاكتفاء الذاتي فطرحوا في قصصهم خبرات غير مباشرة تلبي هذه الأمور. وهي أبرز نوع من أنواع أدب الأطفال، فهم مغرمون بالقصة شديدو التعلق بها يقرؤونها بشغف ويندمجون مع أبطالها...

وفي سورية ازدهرت قصص الأطفال في مطلع السبعينات بفضل ثلاثة رواد حاولوا ترسيخ هذا الفن ويأتي في المقدمة، (زكريا تامر) الذي كتب قصصاً تعنى بالبساطة الفنية مع اهتمام واضح باللغة الفصحى، وقد أسهم أيضاً (عادل أبو شنب) في قصصه التي حملت قيماً تربويةً، وبعد جيل الرواد جاء كتاب قاصون.

الشعر: إن التحدث عن الشاعر سليمان العيسى ضرورة حقيقية فله السبق في هذا الميدان وهو يقدم دائماً شعراً متميزاً للأطفال قريباً من عالمهم.

المسرح: المسرحية الموجهة للصغار وسيلة مجدية لتدريب ألسنتهم على التعبير وإجادة النطق في وضوح ودقة وتنمية ثروتهم اللغوية والنهوض بأذواقهم الأدبية والفنية والكشف عن مواهبهم، أي أن المسرحية من أفضل الوسائل في تعليم الأطفال فن الإلقاء والتمثيل.

إن حصة الطفل السوري من المسرح الموجه قليلة فلو حاولنا إحصاء العروض المسرحية الممثلة والموجه للأطفال على مسارح دمشق مثلاً لوجدنا أنها لا تتجاوز /٥/ مسرحيات سنوياً من أفضل الحالات وأكثرها تفاؤلاً.



للأنثى قصيدتُها..
وللرَّجُلِ شَهْوَةُ القَتْلِ..

شعر: د. سعاد الصباح

سيظَلُّونَ ورائي

بالبواريدِ ورَائي

والسّكاكينِ ورائي

والمجلاّتِ الرّخيصاتِ ورَائي

فأنا أعرفُ ما عُقْدَتُهُمْ

وأنا أعرفُ ما مَوْقِفُهُمْ

مِنْ كتاباتِ النِّساء..

غيرَ أنّي..

ما تعوّدتُ بأن أنظُرَ يوماً

للوراء..

فأنا أعرفُ دَرْبي جيداً

والصَّعاليكُ – على كَثْرَتِهمْ –

لن يطالوا أبداً كَعْبَ حِذائي

لن يَنالوا شَعْرَةً واحدةً مِنْ

كِبْريائي

فلقد علَّمني الشِّعْرُ، أن أَمْشِي

ورأسي في السَّماء..

أَطْلَقُوا خَلْفي كلابَ النَّقْد..

حتَّى يُرْعِبُوني..

سَخَّروا أجهِزَةَ الإعْلامِ ضِدِّي

واستعانُوا بالجُنُودِ الانكشاريّينَ

حتَّى يُسْكِتُوني..

هكذا أوحَى لهُمْ سيِّدُهُمْ

أن يَصْلِبُوني..



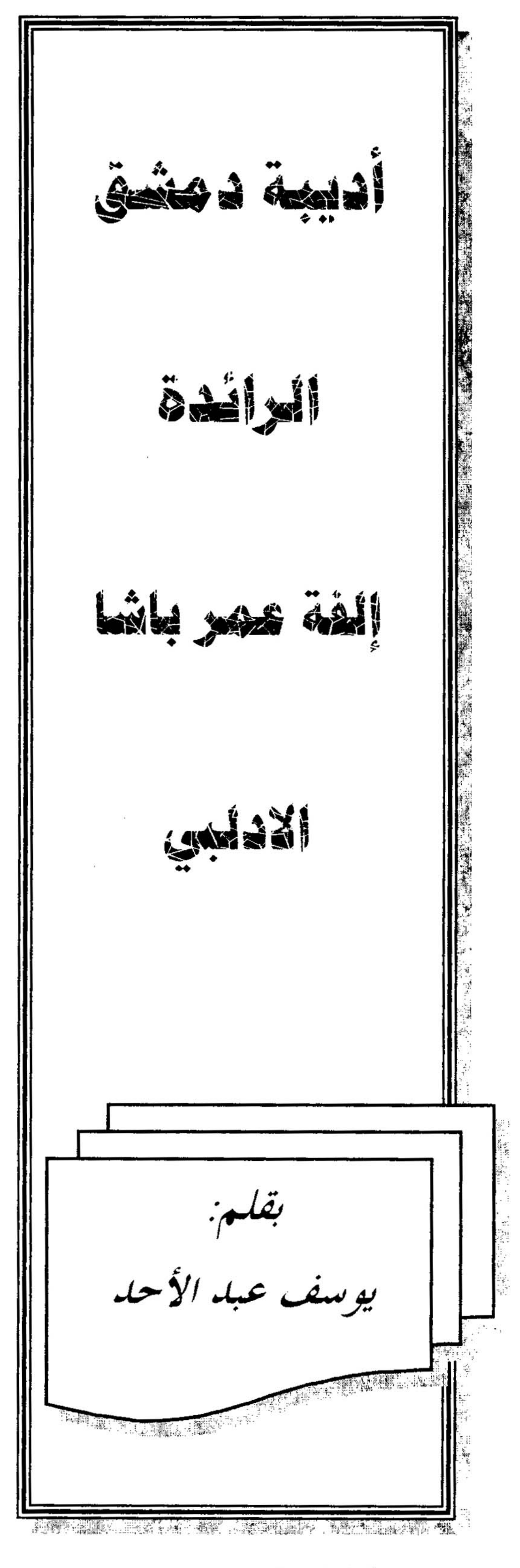




لا كِلابُ النَّقْدِ يوماً، قد أخافَتني
ولا هُمْ خَوَّفُوني..
ليس في إمكانِهِمْ
أن يَقْمَعُوا صوتي..
ليسَ في إمكانِهِمْ
أنْ يُوقِفوا بَرْقي..
وإعْصاري..
وأمْطارَ جُنُوني..
أتَحدَّاهُمْ جميعاً
أتَحدَّى كلَّ أنواعِ السُّلالاتِ التي
تحمُنا
باسمِ السَّماءِ..
أتَحدَّى سارقي السُّلْطَةِ مِنْ
شَعْبي
وتُجّارَ العَقاراتِ..
وتُجّارَ النِّساءِ..
أتحدَّى سارقي حرِّيّةِ الفِكْرِ،
ومَنْ أفْتُوا بذَبْحِ الشِّعْرِ حيّاً
وبذَبْحِ الشُّعراءِ..

أتحدَّى..
كلَّ مَنْ يَحْتَرِفُونَ السَّلْبَ..
والنَّهْبَ..
ومَنْ خانُوا تُراثَ الصَحراءِ..
أتحدّاهُم بشِعْري..
وبنَثْري..
وصُراخي..
وانفجاراتِ دِمائي..
أتَحدَّى ألفَ فِرْعَونْ على
الأرضِ،
وأَنْضَمُّ لحِزْبِ الفُقَراءِ..
سيظَلُّونَ ورَائي..
بالإشاعاتِ ورَائي..
والأكاذيبِ ورَائي..
غيرَ أنّي
ما تعوَّدتُ بأنْ أنظُرَ يوماً
للوراءِ
فلقد علَمَني الشِّعْرُ بأن أمشي
ورأسي في السَّماءِ..



قاصة موهوبة، وروائية متميزة، وأديبة مرموقة..

ولدت الأديبة ألفة الأدلبي في حي الصالحية بدمشق عام ١٩١٢، من أبوين هما أبو الخير عمر باشا، وأم داغستانية هي نجيبة الداغستاني.

تلقت دراستها في مدرسة تجهيز البنات، وفي عام ١٩٢٩، تزوجت من الدكتور حمدي الأدلبي وهي في السابعة عشرة من عمرها.

البدايات

بدأت في الكتابة في سن مبكرة، وكان والدها المشجع الأول لها وكانت مدللة عنده فهي وحيدة لخمسة اخوة ذكور.

أخذ والدها يقرأ لها نصوصاً من الأدب الحديث والقديم، وعرّفها بطه حسين وبالمعارك النقدية التي كانت تثار في المجلات المصرية كالرسالة والمقتطف وغيرها، وكان لدى والدها مكتبة غنية بأمهات الكتب فقرأت الأمالي والأغاني والمقتطف والعقد الفريد، وكان لخالها الدكتور كاظم الداغستاني (١٨٩٨ -١٩٨٥) الفضل الكبير في دفعها إلى كتابة القصة القصيرة.

في عام ١٩٣٢ أُصيبت بمرض أقعدها في الفراش مدة سنة كاملة، فأخذت تقرأ بنهم خلال هذه المدة لتشبع هوايتها وتكتب معلومات أدبية من خلال قراءاتها لأدباء كبار منهم محمود تيمور، مارون عبود، جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، ومعروف الأرناؤوط وغيرهم.

وفي عام ١٩٤٠ انتسبت إلى ثلاثة جمعيات أدبية وهي جمعية الندوة، وحلقة الزهراء الأدبية، وجمعية الرابطة الثقافية النسائية، وكان من أهم أعمال الرابطة إصدار كتاب (مختارات من الشعر والنثر) للرائدة ماري عجمي (١٨٨٨-١٩٦٥).

عملت في لجنة النشر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب زهاء سبع سنوات كما عملت في لجنة المقتنيات في مؤسسة السينما.

شاركت في إحياء عدد كبير من الأمسيات الأدبية في دمشق وبعض المحافظات السورية وألقت عشرات المحاضرات في الأندية والمراكز الثقافية، وأجريت معها مقابلات صحفية وتلفزيونية، واشتركت في مسابقة إذاعة لندن عام ١٩٤٧، ففازت قصتها (القرار الأخير) بالجائزة الثالثة، وقد شجعها هذا الفوز على الاستمرار في كتابة القصة وأخذت تنشر قصصها ومقالاتها في الصحف والدوريات السورية والعربية.

أصدرت أول مجموعة قصصية لها بعنوان (قصة شامية) عام ١٩٥٤، وصدرت مجموعتها الثانية بعنوان (وداعاً يا دمشق) عام ١٩٦٣.

أحبت دمشق وعشقتها بكل جوارحها فسجلت في قصصها وصفاً دقيقاً لتقاليد الأفراح والأتراح والأهازيج في الأعراس الشامية، والبيوت الشامية القديمة وأزقتها الشعبية، والمسحراتي في شهر رمضان المبارك، وذلك بأسلوب إبداعي مشوّق. وفي عام ١٩٦٤ ،أصدرت كتابها (المنوليا في دمشق الذي ضمّ مجموعة من المحاضرات التي ألقتها في عدة مناسبات وبعض الأحاديث الأدبية.

تقول ألفة عن دمشق:

"هي أمي وكم أتمنى أن أكون ابنتها البارة وترضى عني، سعيت كثيراً إلى أن أكتب عن دمشق كل ما عرفته منذ صباي وحتى الآن، وكتبي ورواياتي التي تحمل اسم دمشق في عناوينها لم تكن مقصودة بل كانت عفوية"

كان زوجها الدكتور حمدي الأدلبي المشجع والقارئ الأول لأدبها وناقدها، وهو ذوّاقة للأدب إضافة إلى مكتبته العامرة بأمهات الكتب المختلفة.

لقد اهتم المستشرقون بأعمال ألفة الأدبية نظراً لأن قصصها تعطي صورة وصغية جميلة عن الحياة الشامية وعن عاداتها وتقاليدها وناسها، وأريج أشجارها وثمارها، فترجمت أعمالها إلى عدة لغات منها الإنكليزية، والفرنسية، والروسية، والصينية، والبلغارية، والرومانية، وقد أعدّ الدكتور رفيق الصبان روايتها (دمشق يا بسمة الحزن) تلفزيونياً عام ١٩٩٣، وأخرجها لطفي لطفي في ١٥ حلقة وترجمت إلى اللغة الانكليزية بعنوان SABRIYA DAMASCUS BITTER SWEET، قام بالترجمة الأديب بيتر كلارك وصدرت الطبعة الأولى في لندن عام ١٩٩٠، والطبعة الثانية صدرت في نيويورك عام ١٩٩٧.

تكريم الأديبة ألفة تقديراً لأعمالها الإبداعية

أقامت إدارة مجلة الثقافة للأديبة الكبيرة ألفة الأدلبي حفل تكريم بدعوة من صاحب مجلة الثقافة الأستاذ مدحة عكاش، وبرعاية السيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة

الثقافة السابقة، وذلك في قاعة المحاضرات في مكتبة الأسد في ١٩٩٣/١٠/٢٧، شارك في هذا الحفل كل من الأدباء:

الدكتور شاكر الفحام، الدكتور بديع حقي، الدكتور عبد السلام العجيلي، الأستاذ نجاة قصاب حسن، الشاعر جابر خير بك، والأديبات ملاحة الخاني، وداد قباني، وأميرة الدرة.

أجمع المشاركون على أن أدب ألفة الأدلبي ظاهرة هامة وفريدة من نوعها لأنها خلّدت في قصصها معالم الشام فوضعت تقاليدها وعاداتها وأعراسها وأهازيجها وبيوتها وحاراتها القديمة وعبير ياسمينها وكبادها فكانت لوحة جميلة وساحرة.

ثم سلّم الأديب الأستاذ مدحة عكاش إلى الأديبة ألفة الأدلبي شهادة تقدير وهذا نصّها:

"إن مجلة الثقافة التي تصدر في دمشق تثمن عالياً الإنتاج الأدبي في مجال القصة والرواية للسيدة ألفة الأدلبي واعترافاً منها بعطائها المتميّز تمنحها هذا التقدير متمنية لها مزيداً من العطاء في خدمة الأدب العربي"

دمشق في ١٤١٤/٥/١٢هـ
الموافق في ١٩٩٣/١٠/٢٧م

مدحة عكاش
مؤسس المجلة ورئيس تحريرها

آراء وشهادات الأدباء

١- مارون عبود عن (قصص شامية):

((إن أرضنا بور يا سيدتي، فلنحرثها أولاً ثم ننقل سكننا إلى الأراضي المجهولة، إلى الأراضي الموات لنحييها، تصير لنا، إن أساطيرنا وكل بلد فيه ما يكفيه، يحتاج إلى من يحييها، وفي إحيائها أدب جم ومواضيع طريفة.. حسبها في كتابها (قصص شامية) أنها فتحت طاقة تطل على البيوت الشامية فصورت بعض نواح (من نواحيها الشرقية) جريدة النهار ١٩٧٠/٧/٢٣.

٢- سامي الكيالي:

((أديبة بارعة الوصف، دقيقة الملاحظة، تستمر عناصر قصصها من حياة المجتمع السوري، تصف الحياة القديمة بمختلف صورها، وتجيد وصف مظاهر الحياة الحديثة وصفاً يدنيه من الواقع))
مجلة العربي كانون الثاني ١٩٦٢.

٣- محمود تيمور:

((بناء أقاصيصها يقوم على دعائم من استجابة الكاتبة للحياة من حولها، فهي لا تضرب في مسارح الخيال، فتسوي لنا صوراً من جانب السماء عليها أصباغ من قوس قزح لا تكاد تلمح حتى تخبو، بل إنها تصطنع الخيال أداة طيعة تهبط بها إلى الحياة على ظهر الأرض، فتتخذ من الأخيلة ما يتخذ الطاهي من التوابل والأفادية مطيباً بها ألوان الطعام، تستجيب له نفسها من شؤون المجتمع ومرائيه.))

٤- الدكتور عبد السلام العجيلي:

((تتميّز السيدة ألفة الأدلبي بوهبتها البارعة في تسجيل قصص الحياة الواقعية بأسلوب رائق وسرد طلي مستمدين من نضارة

الحياة الشامية التي تضعها في ما تكتبه، وتكاد السيدة إدلبي أن تكون الوحيدة بين قصاصينا وكاتباتنا القصصيات التي بلغت بهذا النوع من الفن القصصي هذه الدرجة من الكمال)).
مجلة المضحك المبكي ١٩٦٣.

٥- الأديب فاضل السباعي:

((.. وفي حديث إلفة الإدلبي عن دمشق، الحارات القديمة وذكرياياتها الدافئة - الذي ترسله من على المنابر الثقافية هنا وهناك - كانت موفقة دائماً ي أن تستحضر الماضي وتبعثه حيّاً بكل ما فيه من حب وودّ وجمال، وإن لهم من طريف الذكريات وخلو التقاليد)).

٦- الأديب ميخائيل عيد:

((.. الفة الأدلبي جذوة من المشاعر الإنسانية تتوهج فتضيء وتدفئ.. تحكي حكايات دمشق فتبعث الحارات القديمة ويزهر الياسمين والكباد وتطل وجوه الناس..
ساحرة الكلمة الطيبة هذه تملك مقدرة ساحرات الحكايات الطيبات كلها..
وهل أروع من السحر الذي يبعث الحياة فيصير الأدب دنيا؟)).

٧- نجاة قصاب حسن:

((سميتها "ست الشام" لأنها الأكثر عراقة، والأندى أدباً بين كل أديباتنا الفاضلات ولأنها الدمشقية بامتياز في مجال الكتابة التي تجلو عمق هذه المدينة الأبدية..
ولغة ألفة الإدلبي مطواعة تقرأ فهي فصحى وتنطق فهي من المألوف..))

٨- الدكتور شاكر الفحام:

((السيدة ألفة الإدلبي صوت متميز أطلت على دنيا الأدب بمجموعتها القصصية الأولى (قصص شامية) سنة ١٩٥٤ فاستحوذت على إعجاب قرّائها بأسلوبها الساحر وتمكنها من ناحية الفن.
بدأت عطاءها الطيب بعد أن استوفت متطلبات صناعة الكتابة واستكملت أدواتها ففاجأت القرّاء بما قدمت من قصص مُعْجب مؤنق..))

٩- عدنان بن ذريل:

((الحرص على رصد الواقع الشامي وتطوراته في سورية العربية ظاهر في أدب السيدة إلفة، ومجموعة "وداعاً يا دمشق صورة لهذا الحرص الأدبي الذي هو بالأحرى عندها منحى أدبي بارز المعالم)).

١٠- د. عبد الله أبو هيف:

((لقد كتبت إلفة الادلبي عن المرأة المقهورة في قصصها السابقة مثلما في مجموعتها "عصي الدمع" وكانت ترى أن هذا القهر صورة المجتمع وكأنها اليقين الذي لا يقبل الشك، فتخلف المرأة وفاعليتها شيء من بنيانن المجتمع وأصوله الراسخة.
عموماً تعلن إلفة الادلبي من جيد حزنها على وضع المرأة ولكن في إطار الحفاظ على القيم والأخلاق السائدة، أنها تدعو إلى التكيف مع المجتمع وليس إلى تغييره..))

١١- عفراء ميهوب:

((لو لم تكن هناك إلفة الادلبي لتمنيت أن توجد واحدة مثلها تخط لنا حياة المرأة الشرقية بكل بلواها فتبدو لقصصها قيمة وثائقية تتحدث عن مرحلة قديمة جداً من التخلف الاقتصادي والاجتماعي.

هذه الوثائق بالذات من حياة المرأة في أدب إلفة الإدلبي تأخذ منحى يختلف عن غيرها من الوثائق، نظراً لأن أكثر ما تحدثت عنه الكاتبة لا زال متفشياً في وسطنا بشكل أو بآخر))

١٢- وداد قباني:

((وقد حرصت الأديبة ألفة فقي مجمل رواياتها على رصد الواقع الشامي وتطوراته حيث هي دمشقية الأصل والروح ذات أسلوب سلس عذب، رضعت حبها للشام منذ ولادتها من أبويها الدمشقيين، وقد بدأ اهتمامها بالأدب في المرحلة الإعدادية رغم أنه لم يتيح لها متابعة التحصيل العلمي المنتظم غير أنها تابعت ثقافتها بشكل ذاتي وأجهدت نفسها لتحصيل ثقافة متنوعة وشاملة فكانت بحق رائدة من رائدات التعليم الذاتي..))

١٣- أميرة الدرة:

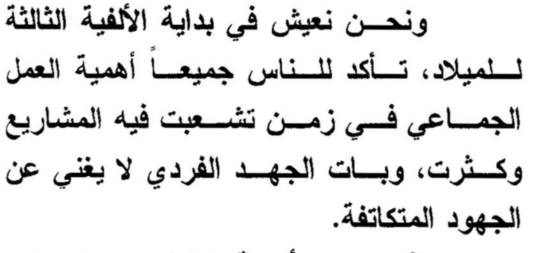
((عرفتها جذوة دائمة التوهج.. إمرأة لا تعرف التوقف.. ودائماً تسير، لا تمل.. لا تشكو.. لا تتعب.. وتحمل معها في كل مرة ألتقي بها كل جديد ومفيد..))

مؤلفاتها المطبوعة

١- قصص شامية - دار اليقظة دمشق ١٩٥٤ - طبعة ثانية دارس طلاس ١٩٩٢.
٢- وداعاً يا دمشق - وزارة الثقافة ١٩٦٣ - طبعة ثانية دار طلاس ١٩٩٢.
٣- المنوليا في دمشق - ١٩٦٤ - طبعة ثانية ١٩٩١.
٤- ويضحك الشيطان وقصص آخرى - وزارة الثقافة ١٩٧٠ - طبعة ثانية دارس طلاس ١٩٩١.
٥- نظرة في أدبنا الشعبي - اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٤ - طبعة ثانية دار الشاري ١٩٩٢.
٦- عصي الدمع - اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٦ - طبعة ثانية دار طلاس ذ١٩٩١.
٧- دمشق يا بسمة الحزن - وزارة الثقافة ١٩٨٠ - طبعة ثانية دار طلاس ١٩٩٠.
٨- نفحات دمشقية ومحاضرات أخرى - جمعية أصدقاء دمشق ١٩٨٠ - طبعة ثانية دار دروبي ١٩٩٠.
٩- إسرائيليات (محاضرة) - جمعية أصدقاء دمشق ١٩٨٣.
١٠- حكاية جدي - دمشق ١٩٩٠ - طبعة ثانية دار طلاس ١٩٩١.
١١- ما وراء الأشياء الجميلة - دار إشبيلية دمشق ١٩٩٦.
١٢- وداع الأحبة (رثاءات) دمشق ١٩٩٢.
١٣- عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة - دار إشبيلية ١٩٩٦.

الدور الثقافي للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)

بقلم:
أحمد حسن الخميسي



ونحـــن نعيش في بداية الألفية الثالثة لــلميلاد، تــأكد للــناس جميعــاً أهمية العمل الجمــاعي فــي زمـــن تشـعبت فيه المشاريع وكــثرت، وبـــات الجهـــد الفردي لا يغني عن الجهود المتكاتفة.

لذلك برزت أهمية المنظمات والهيئات التي تعمل وفق خطة جماعية مدروسة، تعتمد على تنظيم وترشيد الكفاءات التي تنطوي تحت مظلتها.

ومن هذه المنظمات التي ظهر دورها وفاعليــتها (المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) والتي عرفت باسم (الإيسيسكو).

هـــذه المـــنظمة أنشئت بقرار جماعي لمؤتمـــر القمة الإسلامي الثالث الذي عقد في مكة والطائف في المملكة العربية السعودية في يــناير عـــام ١٩٨١م، وأصبح مقرها الرئيسي فـــي الـــرباط بالمغرب، وأعضاء المنظمة من الدول العربية والإسلامية وقد بلغ عددهم أكثر من /٤٠/ دولة.

من أبرز أهداف هذه المنظمة كما ورد في دليل عملها:

١- تقويـــة الـــتعاون وتشـــجيعه وتعميقه بين الدول الأعضاء في ميادين التربية والعلوم والثقافة والاتصال.
٢- تطويـــر العلوم التطبيقية واستخدام التقانة المتقدمة في إطار القيم والمثل العليا الثابتة للأمة الإسلامية.
٣- تدعيـــم الـــتفاهم بيـــن الشعوب الإسلامية والمســـاهمة فـــي إقرار السلم والأمن في العالم بشتى الوسائل، ولا سيما عن طريق التربية والعلوم والثقافة والاتصال.
٤- جعل الثقافة الإسلامية محور مناهج التعليم في جميع مراحله ومستوياته.

٥- تدعيم التكامل والسعي للتنسيق بين المؤسسات المتخصصة التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في مجالات ثقافية عديدة، وبين الدول الأعضاء في المنظمة الإسلامية - إيسيسكو - تدعيماً للتضامن الإسلامي.

٦- دعم الثقافة الإسلامية وحماية الاستقلال الفكري الإسلامي من عوامل الغزو الثقافي والتشويه والمحافظة على معالم الحضارة الإسلامية وخصائصها المتميزة.

٧- حماية الشخصية الإسلامية للمسلمين في البلدان غير الإسلامية.

وسنقف عند دور (الإيسيكو) الثقافي في العالم العربي والإسلامي.

إن تنمية الثقافة الإسلامية، كان هدفاً من الأهداف الرئيسية للمنظمة لما للثقافة الإسلامية من أهمية في حياة الإنسان.

وكان للمنظمة دور رائد في نشر هذه الثقافة، وتعميقها في أنحاء العالم. ومن النشاطات الهامة التي تقوم بها: عقد المؤتمرات والندوات الثقافية، وإصدار النشرات الإعلامية، ونشر الكتب الثقافية المفيدة.

المؤتمرات والندوات

إن المؤتمرات والندوات ظاهرة عالمية ناجحة، إذ يلتقي فيها رجال الفكر والثقافة من دول متعددة، فيتحاورون حول مسائل تهم الإنسان في تربيته وثقافته وشؤونه الأخرى.

ولقد اعتنت (الإيسيسكو) عناية فائقة في هذا الجانب لما له من فوائد، فالحوار البنّاء الهادف بين الشعوب يوصل إلى الحقيقة.

ومن الندوات التي عقدتها المنظمة خلال السنوات الأخيرة ندوة (التقريب بين المذاهب الإسلامية) في مدينة الرباط في المغرب في شهر أغسطس عام ١٩٩٦، وقد خرج المؤتمرون بتوصيات تهدف إلى جمع شمل المسلمين وتوحيد وجهات نظرهم ونبذ الخلافات.

وعقدت في الرباط في شهر ذي الحجة عام ١٤١٧ الموافق شهر مايو سنة ١٩٩٧ (مائدة مستديرة) حول موضوع (الإيسيسكو والقرن الحادي والعشرون التحديات والمسؤوليات) وذلك بمناسبة حلول الذكرى الخامسة عشرة لإنشاء المنظمة الإسلامية، تحدث فيها المشاركون - وعلى رأسهم رئيس المنظمة الدكتور عبد العزيز عثمان التويجري - عن المحاور الخمسة التي نصت عليها ورقة العمل التي تضمنت:

١- العمل الثقافي في إطار المتغيرات الدولية.

٢- تحديات البناء الحضاري على مستوى المنظمات الإقليمية والدولية.

٣- التحديات التي ستواجه الإيسيسكو في القرن الحادي والعشرين.

٤- مسؤولية العالم الإسلامي في دعم الإيسيسكو.

وألقى المشاركون وجهات نظرهم حول هذه القضايا، ونُشر ما قدموه في مجلة (الإسلام اليوم) التي أصدرتها المنظمة عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

وبالتعاون مع جامعة الزيتونية أقامت المنظمة ندوة في تونس حول (أدب الاختلاف في الإسلام) في شهر ديسمبر ١٩٩٨، حضرها إثنا عشر فقيهاً ومفكراً من دول عربية وإسلامية.

واستمرت المنظمة في إقامة الندوات والمشاركة فيها هنا وهناك ففي عام ٢٠٠٢م عقدت الإيسيسكو في الرباط ندوة دولية حول العالم الإسلامي في الإعلام الغربي بين الإنصاف والإجحاف في ٩ و١٠ يناير وأقيمت ندوة دولية برعاية الرئيس السوري بشار الأسد نظمتها الإيسيسكو حول (الحوار بين الحضارات من أجل التعايش) بين ١٨ و٢٠ مايو ٢٠٠٢.

ونظمت في العام نفسه بين ٢٠ و٢١ يونيو ندوة دولية في لندن حول (الغرب والإسلام في وسائل الإعلام).

وتزداد الندوات واللقاءات وتستمر، ولقد دعت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إلى ندوة حول (قضايا الطفل من منظور إسلامي) في الرباط - المغرب - أقيمت بين ٢٩-٣١ أكتوبر ٢٠٠٢م، شارك فيها الكثيرون من المثقفين ورجال الفكر.

هذه نماذج من ندوات ومؤتمرات عقدتها (الإيسيسكو) أو شاركت فيها، كانت تعمل من خلالها على نشر الثقافة الإسلامية في أنحاء العالم من أجل حضارة للبشرية متميزة، تنهل من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

المطبوعات والإصدارات

أما عن المطبوعات والإصدارات، فالمنظمة في باب الإعلام، تصدر نشرة إعلامية حول أعمالها ونشاطاتها باللغات الثلاث - العربية والإنكليزية والفرنسية - وتصدر مجلة دورية سنوية باللغات الثلاث.

وطبعت المنظمة (دليل الإيسيسكو) وهو دليل إعلامي تعريفي قدم للقارئ خلاصة عن أعمال المنظمة ونشاطاتها خلال السنوات الماضية كما أن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) تصدر في كل سنة عدة كتب، وقد بلغ عدد مطبوعات المنظمة حتى مارس ١٩٩٨م حوالي مئتي كتاب في التربية والعلوم والثقافة وسنذكر نماذج من هذه الإصدارات.

في مجال الثقافة الإسلامية

طبعت المنظمة عدة كتب تناولت عدة جوانب من الثقافة الإسلامية، ووضعت لها أسساً لتنميتها، وخططاً للنهوض بها.

من هذه الكتب (التنمية الثقافية من منظور إسلامي) للدكتور (عبد العزيز بن عثمان التويجري) رئيس المنظمة، وكتاب أعدته المنظمة وأصدرته بعنوان (الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي) وتهتم المنظمة بالأوضاع الثقافية في الدول الإسلامية فتصدر بين الفينة والأخرى كتباً عن ثقافة تلك الدول مثل كتاب (الإسلام والثقافة الأذربيجانية) لمؤلفه رفيق عليوف.

وحول الثقافة الإسلامية للأطفال أصدرت (الإسلام للأطفال) للدكتور عبد الرؤوف، وكتاب (الرؤية الإسلامية لإعلام الطفل) للدكتور محي الدين عبد الحليم، الذي جعلته المنظمة منهاج عمل لها في هذا المجال لما جاء فيه من خطوات هادفة لتثقيف الأطفال إسلامياً عن طريق الإعلام.

في مجال التربية والتعليم

اهتمت المنظمة بالجوانب التربوية، وعملت جاهدة من أجل المناهج في المدارس نابعة من الإسلام، فطبعت كتباً عن التربية الإسلامية، وأخرى عن مناهج تدريس علوم متنوعة، فعن أثر الصلاة وأهميتها في حياة المسلم ودورها في تربيته، أصدرت كتاب (الأبعاد التربوية للصلاة) تأليف أحمد العامري الأستاذ بكلية علوم التربية بجامعة محمد الخامس في الرباط.

وعن إعداد المعلمين والمدرسين أصدرت (منهج الإيسيسكو لتدريب معلمي اللغة العربية لغير الناطقين بها) لمؤلفه إسحاق الأمين الأخصائي في برامج التربية في المنظمة، وكتاب (المنهج التوجيهي لتكوين المكوّنين في التربية الإسلامية واللغة العربية) تأليف الدكتور مصطفى الزباخ مدير التربية بالايسيسكو وتستمر في نشر الكتب التي تسهم في تطوير التربية والتعليم فأصدرت (المفهوم الإسلامي للتربية الدولية) ونشر كتباً في الكيمياء والتاريخ والنحو وفي العلوم وفي الرياضة، والتراجم، واهتمت بجغرافية الأمم الإسلامية فأصدرت عدة كتب عنها.

الثقافة الإسلامية

وتهتم المنظمة بالثقافة الإسلامية فبالإضافة للندوات وفتح المدارس والمعاهد، تعمل على طبع الكتب التي تتناول جوانب متعددة منها.

فقد أصدرت (معجم تفاسير القرآن) الذي يتضمن تعريفاً وتقديماً بتسعة وثمانين تفسيراً من التفاسير المطبوعة من مختلف العصور مع ترجمة لحياة المفسر وبيان المنهج الذي تبعه.

ووزعت من منشوراتها (دليل مناهج المدارس القرآنية) تأليف الدكتور أحمد ولد الحسن الخبير بالمنظمة.

وتعتني المنظمة بتصحيح ما ينشر عن الإسلام، وتعتبر ذلك من مهامَّها الرئيسية، ففي سلسلة تصحيح ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة، أصدرت كتاباً باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية بعنوان (القرآن الكريم: دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الصادرة عن دار بريل في ليدن) وكتاب (العقيدة الإسلامية دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل ليدن) تأليف محي الدين القره داغلي، ومن الإصدارات الجديدة للمنظمة (دليل المصطلحات الفقهية).

وتقوم بتوزيع هذه الكتب والنشرات على الجامعات ومراكز البحوث والدراسات وإلى دور الكتب الوطنية الكبرى في الدول العربية والإسلامية وتهديها إلى بعض الشخصيات الثقافية والفكرية والإعلامية.

هذه بعض نشاطات (الإيسيسكو) في السنوات الأخيرة، ولها برامج وخطط مستقبلية لعام /٢٠٠٠/ وما بعده لمدة تزيد عن خمسة سنوات قادمة، فهي تسير ضمن خطط مدروسة وهادفة، وقد حققت الكثير في سنواتها الماضية، حيث وصلت آثار أعمالها إلى أماكن بعيدة في العالم الإسلامي، وحيثما وجد المسلمون، وهذا دليل نجاح العمل الجماع المبني على المحبة والتعاون والتضامن والله ولي التوفيق.




أبداً.. أبداً لا تقتربي..!

شعر: محمد الزينو السلوم

لـــــن تغويـــــني، يكفـــي ســـحر
لـــــن أكتـــبكِ بـــورد الشـــعر
شـــعري بـــوحُ مـــن وجدانـــي
شـــعري أغـــرفه مـــن بحـــر
شـــعري منـــبعه أعمـــاقي
لا أحفـــر أبـــداً فـــي الصـــخر
عشـــقي يســـكن فيـــه البـــوح
وعشـــقك يســـكن فيـــه الســـحر
عشـــقي أحـــلامٌ تتجـــلّى
تـــتدلّى أغصـــاناً خضـــر
كـــم عاتبـــتك بعـــد عهـــودٍ؟
كـــان العفـــو دليـــلي الحـــر
كـــم ســـامحتكِ بعـــد وعـــودٍ؟
آلـــتْ لعـــذابٍ أو قهـــر
كـــنتُ بعشـــقي أمضـــي جهـــراً
لا أهـــوى عشـــقاً فـــي الســـر

*　　*　　*







لـــــن تغويـــــني يكفـــــي ســـــحر
لـــــن أكتـــــبك بمـــــاء الشـــــعر
إن الماضـــــي أصـــــبح ذكـــــرى
فـــــي أعمـــــاقي يولـــــد جمـــــر
أذكـــــرهُ، يشـــــتعل فـــــؤادي
لا يُطفـــــئه بـــــرد، حـــــر
أذكـــــرهُ والذكـــــرى نجـــــوى
تفعـــــل مـــــا يفعلـــــه الخمـــــر
أتـــــرعها مـــــن غيـــــر كـــــؤوسٍ
لـــــم تحـــــتجْ يومـــــاً (للكَسْـــــر)
أبـــــداً، أبـــــداً لـــــن أتـــــبدّل
لونـــــي مـــــن ألـــــوان الزهـــــر
عطـــــري تنشـــــره أزهـــــاري
إن زار يُبشـــــر بالخيـــــر
وأنـــــا الأبيـــــض مـــــثل الثـــــلجِ
ولا أخفـــــي فـــــي نفســـــي شـــــر

* * *

لـــــن تغويـــــني يكفـــــي ســـــحرْ
لـــــن أكتـــــبك بعطـــــر الشـــــعر
أغـــــزلُ شـــــعري حـــــرفاً حـــــرفاً
اغـــــزل شـــــعري ســـــطراً، ســـــطر
فـــــي أعمـــــاقي بحـــــر جـــــراحٍ
تـــــنزف مـــــن آلام العصـــــر





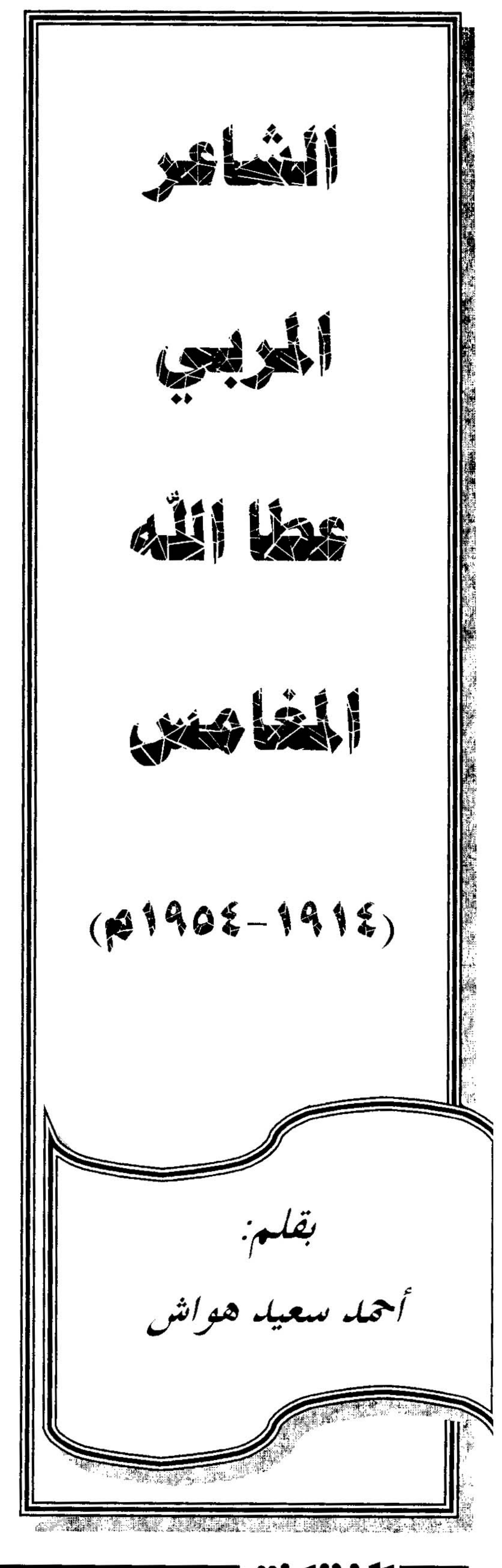


فـــي آفـــاقي شـــمس صـــباحٍ
تســـكن فـــي أوزان الـــبحر
تـــرقصُ، تجعـــلها الموســـيقا
أنـــثى تـــرحل بـــي للـــنهر
نـــركب زورق شـــعرٍ تمضـــي
لا يُغرقـــنا مـــوجٌ، صـــخر
نـــرقى فيـــه بفيـــضِ خيـــالٍ
فيلوّنـــنا لـــون الجمـــر
نرســـمه فـــي لوحـــة فـــنٍ
نصـــعد بوحـــاً نحـــو الـــبدر
ألـــثم مـــثل فراشـــة بـــوحٍ
أزهـــاراً، بيضـــاً أو (سُـــمْر)
ثـــمّ أهيـــم بســـكْرٍ أبـــدي
لا يعـــترف بهـــذا العمـــر
أحيـــا طيفـــاً، أبـــقى ضـــيفاً
وأمـــنّي نفســـي بالصـــبر

*　　*　　*

هيّـــا، هيّـــا لا تقـــتربي
لـــن تغويـــني يكفـــي ســـحر
لـــن أتـــنازل أبـــداً، أبـــداً
لا فـــي يســـرٍ، أو فـــي عســـر
هيّـــا، هيّـــا لا تقـــتربي
لا تقـــتربي.. هـــذا أمـــرْ..



في الرابع من شهر تموز لعام ١٩٥٤ رحل عن دنيانا المربي الشاعر عطا الله المغامس وهو في أوج العطاء، لقد مر في سماء الأمة العربية كالشهاب الساطع، الذي يبلغ ذروة توهجه ثم ينطفئ بسرعة؛ مر كأسلافه العظام:

طرفه بن العبد.. والصاحب بن عباد.. وأبي فراس الحمداني.. وغيرهم..

والحديث عن المربي عطا الله المغامس يحتاج إلى كتب لا إلى صفحات، لذلك سنقتصر الحديث على عروبته ووطنيته وباختصار..

وبادئ ذي بدء لابد من إعطاء لمحة موجزة عن حياة شاعرنا الكبير، فقد ولد عطا الله المغامس في دير عطية في نهاية عام ١٩١٤، لأبوين كريمين.

وقد أنهى دراسته الابتدائية في المدرسة الروسية بدير عطية، وأكمل دراسته لمرحلتين الإعدادية والثانوية العامة. الجزء الأول منها في حمص، ثم انتقل إلى دمشق ليتقدم إلى الثانوية العامة – الجزء الثاني – حسب النظام الفرنسي للتعليم، وبعد ذلك عاد إلى بلدته – دير عطية – ليعمل معلماً متبرّعاً في مدرستها الابتدائية التي تعلّم فيها.. ثم انتسب إلى دار المعلمين العليا، ثم ترسله وزارة المعارف على مصر لإكمال دراسته العليا للغة العربية في جامعة فؤاد الأول بالقاهرة عام ١٩٤٣، ويعود إلى سورية عام ١٩٤٥، وهو يحمل أول إجازة في الآداب على مستوى قرى القلمون.

لقد تبلورت ثقافة المغامس العربية والقومية من خلال تجربته الغنية في مصر، وبدأ حياته العملية بالتدريس في ثانوية خالد بن الوليد، وكان خلال الست سنوات التي

قضاها علماً شامخاً يشار إليه بالبنان، علماً ووطنية، مما أهله ليكون مديراً للتجهيز الثانية في حمص.

يقول العماد مصطفى طلاس في مذكراته حيث كان طالباً في التجهيز الثاني في حمص:

"كان الأستاذ عطا الله مغامس يعتز كثيراً بعروبته، وقد دفعه حب العرب، ولغتهم ودينهم إلى أن قررّ ذات يوم أن يبدأ بالتجول على القرى في جبل القلمون مبشراً بالعروبة، داعياً لاستعادة المجد الغابر، عاشقاً للبادية، معتبراً أن العودة للصفاء العربي لا يأتي إلا بالحياة في البادية، فالعيش في المدن، والخلود للعيش اللّين يفسد العربي ويأتي على أصالته القومية"

وكان في تلك الفترة من حياته في ذروة نشاطه الإبداعي الفكري، إذ كان يكتب المقالة ويقرض الشعر، وكان ينشرها في مجلة (الأمل) التي كان يصدرها الميتم الإسلامي في حمص ويشرف عليها المربي المرحوم رضا صافي.

ولكن القدر لم يمهل الشاعر الأديب عطا الله مغامس، فقد داهمه مرض الروماتيزم في الفقرات الظهرية، ثم يصيبه مرض السرطان في الرأس، فيؤدي إلى شلله ثم وفاته في ١٤تموز عام ١٩٥٤، ولم يكن قد بلغ الأربعين من عمره.

الوطنية والقومية في شعر الشاعر عطا الله المغامس:

كان المربي عطا الله المغامس قد أعدّ قبل رحيله ديواناً من الشعر العمودي الأصيل، ليتم طباعته ونشره، ولكن المنية عاجلت برحيله دون أن يتحقق ذلك في حياته..

ولعل فترة وجوده بالقاهرة خلال دراسته العالية بكلية فؤاد الأول، كانت من أخصب إنتاجه الشعري، حيث القاهرة عاصمة العروبة، وملتقى رجال الفكر والوطنية على ربوعها، ففي أواخر عام ١٩٤٣، قدم الزعيم الوطني اللبناني رياض الصلح للقاهرة، فأقيمت له حفلات تكريم، فنظم الشاعر المغامس قصيدة لتلقى في تلك الحفلة، وحالت موانع سياسية - آنذاك - دون إلقائها، فنقرأ في مطلعها:

بدّلي يا سماء مجرى الكواكب
لم تعد أرض يعرب للأجانب

إلى أن أشار إلى ضرورة وحدة الصف بين أفراد أبناء الشعب العربي والوقوف صفاً واحداً بوجه الأجنبي الدخيل الذي حاول دب التفرقة والخلاف بين أبناء الشعب العربي الواحد:

ذاك يوم قضى مع العُصر الخا
لي بما فيه من ركام المصائب
ذاك يوم مضى مع الريح تذروه
وتلكم رسومه في الخرائب
صدحته الرجال من كل قرم
عربي صعب كريم المشارب

والقصيدة طويلة تزيد على الستين بيتاً، فهي ملحمة قومية، يختمها بالطلب من الزعامات العربية بأن يتحدوا بالآراء

والمواقف والأعمال وسد الثغرات لئلا ينفذ منها المستعمر الأجنبي فقال:

قائدٌ واحدٌ وفلكٌ منيعٌ

وكفانا مهازلاً وألاعب

وشاعرنا ذا نفس شعري طويل، فقد زاد عدد أبيات قصيدة (أبو الهول) على المئة والستين بيتاً بروي واحد وبحر واحد، وقد نشرت مجلة الأمل الحمصية هذه القصيدة تحت موضوع (أبو الهول بين شوقي والمغامس) وقدمت لها أمانة التحرير بالكلمة التالية:

"الأستاذ عطا الله مغامس عربي، صادق الإيمان بعروبته، صلب العود في الانتصار لها، شديد الوطأة على خصومها الشعوبيين"

فلا غرو إذن إذا أوحت إليه وقفته عند أبي الهول قصيدة يعارض فيها أمير الشعراء شوقي؛ ومنها يقول مخاطباً أبا الهول:

أبا الهول أضناك طول العمر

وأهرمك الزمن المستمرِّ

وأرغم أنفك كثير الزمان

وحطَّم تاجك ريب العصر

ثم يشير الشاعر إلى عظماء العرب المسلمين الذين دانت لهم الأمصار والأقطار في مشارق الأرض ومغاربها، وهم أصحاب الحضارة العربية التي ازدهرت بالأندلس وبغداد والقاهرة، ودمشق، شامخة تدل على عظمة الأمة العربية التي يحاول النيل منها بعض الشعوبيين فقال:

سل العرب عن سر هذا الخلـ

ـود سل عنه أحمد أو سل عمر

ثم يشير الشاعر المغامس إلى الظلم الذي لاقاه الشعب المصري القديم تحت حكم الفراعنة الذين تركوا هذه الآثار التي يفتخر البعض بمن بناها، متناسين الحضارة العربية الرائعة التي برزت ما سواها من الحضارات، والتي كان العدل والمساواة رائدها:

أبا الهول حدّث عن الفاتحين

وعمَّن تربع فوق السرر

وخبّر عن الحاكمين العدول

وأوجز عن المستبد الخبر

ويقارن الشاعر المغامس بين الحضارة العربية التي أضاءت دنيا الغرب دون استعلاء وبين الحضارات البائدة التي بنيت على جثث الفقراء والمظلومين فقال مخاطباً أبا الهول:

تسومون شعبكم شرَّ خسف

فضج من العسف حتى الحجر

فكم بائسٍ سحقته الصخور

فمات ومن جوركم قد جأر

وجاء رجال السلام والعدل، قادة الفتوحات العربية ليرفعوا الظلم والحيف والقهر عن المظلومين والمسحوقين من ظلم الفراعنة في مصر، جاء عمرو بن العاص فهدم عروش الفراعنة العتاة فقال:

وعمرو سليل الكرام الأباة

يصيح رومة أين المفر

تمطى فَدكَّ عروش الطغاة

ليبني عرش الهدى والفجر

كذلك كانت كماة الرسول

دعاءً وعدلاً وبأساً وبر

وفي قصيدة فلسطين (طاب الموت)، التي نظمها إثر قرار مجلس الأمن الدولي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، يرجو الشاعر المغامس من أولي الأمر من العرب البدء بتوحيد الكلمة وعدم القبول، والعمل لرد قرار التقسيم بالقوة، ولكن الوهن والخلاف والتخاذل دب بينهم، فغلبوا على أمرهم، هاهو الشاعر يذكر بني قومه بومضات من تاريخ الأمة العربية الجهادي فقال:

نذكركم (ذي قار) اذ بكر قلة

وإذ جيش كسرى أدركته المعاطب

نذكركم يوم (الفراض) إذا شفت

من الروم والفرس القنا والقواضب

نذكركم (بالقينقاع) أزالهم

عن الحي نقض العهد و العهد لا حب

والقصيدة طويلة تربو على الثمانين بيتاً.

وقبل أن نقرأ قصيدة الشاعر عطا الله مغامس (فوق الرجال) التي نظمها بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف سنة ١٣٦٨هـ، ونشرت في العدد (٣و٤)، من السنة الثالثة لمجلة الأمل الحمصية، لابد من ذكر أثر الصحراء في فكر الشاعر مغامس، وحنينه للبادية وحبه لقريته (دير عطية) الواقعة على تخوم البادية كعروس تسند ذراعيها على جبال القلمون، وتمد قدميها فوق الرمال، وهي ليست إلا واحة تعبق بالعبير بين الجبال الشم، جبال القلمون، حسب تعبير عطا الله المغامس.

وكان شاعرنا قد تعمقت ميوله القومية العربية وتحددت فلسفته الداعية إلى نهوض قومي عربي عام ينهل من القيم والأخلاق العربية في العهدين الجاهلي والإسلامي، منذ أن كان يدرس في مصر عام ١٩٤٣، ومن هذا المنطلق أحب الشاعر عطا الله الرسول العربي الكريم محمد ﷺ، وهو العربي الغساني، الذي كان يفتخر بتاريخ العربي الإسلامي ويدعو للعودة إلى ذلك التراث العربي الإسلامي ونهجه واستلهام منجزاته الحضارية، والاقتداء بالرسول العربي الكريم وصحابته الاماجد، لنسمعه يقول:

حادي العيس في خضمِّ البوادي

نتخطى النجاد إثر الوهاد

في فم الكون من حداثك لحن

حملته الصّبا إلى كل شادِ

ثم يشير إلى الأرض الطاهرة التي درج عليها الرسول العربي الكريم محمد ﷺ، ذاكراً معالمها وأشهر مسمياتها فقال:

أنت في مربع النبوة والو

حي ومغنى الأبوّة الأمجاد

أنت بين الصفا وزمزم والمـ

ـروة والشهب في السماء هوادي

ويسترسل الشاعر بذكر فضائل تلك البقاع العربية الطاهرة التي أنبتت بني قومه العربي:

قلت: هذي الرمال يا حادي العـ

ـيس، تزكت بأطهر الأجساد

أنبـــتت أهـــلي الكـــرام وقومـــي

عـــرباً أيـــن صـــنوهم فـــي الـــبلاد

ولكـــن هل نكتفي بالاستكانة والتفاخر بالأمجـــاد العـــربية الغابـــرة، ألا يدعونـــا ذلك للاقـــتداء بالســـلف الصـــالح من أمتنا العربية الذيـــن قـــامت الحضـــارة العـــربية عـــلى سواعدهم..؟

ألا يدعونـــا ذلك لوحدة الصف والكلمة لنســـتطيع الصـــمود أمـــام الطامعين بخيرات الوطن..؟؟

أســـكرتنا مـــن يوم ذي قار ذكرى

قصـــمتنا كأنـــــنا فـــي رقـــاد

وصـــحونا عـــلى صـــدى زفرات

تـــتعالى جياشـــة فـــي أطـــراد

آه مـــا ضـــرّ قومـــنا لـــو تنادوا

لاتحـــاد فـــي الـــنازلات الشـــداد

والقصـــيدة طويـــلة تزيد على المائة والأربعيـــن بيـــتاً، إنهـــا ملحمة عربية بأمجاد العـــرب والإسلام دبجتها قريحة شاعر يعربي اسمه عطا الله مغامس..

وقـــبل أن نـــلقي نظـــرة على قصيدته (أ أخـــي عُدْ)، لابد من ذكر تلك الرسائل الثلاث والعشـــرين الـــتي كان قد أرسلها الشاعر عطا من دير عطية، وحمص إلى شقيقه خليل المقيم فـــي الـــبرازيل وذلـــك مـــا بين عامي ١٩٣٢ و١٩٥٣.

لـــنقرأ فقرة من الرسالة المؤرخة في ١٧/نيســـان/١٩٣٣، والمتضـــمنة مشـــاعر إنسانية يعرفها كل من ابتلى بهجرة أحد أحبابه إلى أمريكا، جاء فيها:

((بـــربك يـــا أخـــي عد إلينا. دع كل شـــيء، وعـــد إلينا فقيراً أو معدوماً، عد إلينا جائعاً أو عرياناً والله ولي الأمور...))

وأول مـــا يلفت النظر في رسائل عطا الله مغامس من دير عطية وحمص إلى شقيقه خـــليل فـــي البرازيل، اهتمام الأخوين بالشأن الوطـــني العام، ودعوة عطا الله لشقيقه للعودة إلى الوطـــن؛ وجاء في رسالة مؤرخة في ١٦ /تموز/١٩٥١ ما يلي:

((... غيـــر أنـــني أتـــوق إلى اجتماع الشـــمل وعودتكم إلينا، فما دار الغربة لكم ولنا بـــدار. أرجوا أن تتصبروا في الأمور وتعودوا أبناءكم ليكونوا عرباً سوريين ويضعوا بلادهم وإصـــلاحها والعـــودة إلى ظلها الوارف نصب أعينهم..))

تـــلك الأشـــواق التي صاغها عطا الله مغامس نفثتها قريحته شعراً عذباً ملؤه الحنان والحنين فلنسمع أبياتاً منه إذ قال:

أ أخـــي عـــدْ ودع الديـــا

ر لأهـــلها بـــئس الديـــار

مـــا أورثتـــنا غيـــر تـــنغيـ

ـــص ومـــوتٍ وافـــتقار

ويـــلح الشاعر عطا الله مغامس على أخيه خليل بالعودة إلى ربوع الوطن، والالتقاء مـــع الأحـــبة على رمال دير عطية، قبل فوات الأوان، ولكأني بالشاعر يعرف مصيره المحتوم وعمره الذي يتسارع نحو النهاية فقال مخاطبا شقيقه البعيد:

أ أخـــي إن المـــوت خـــا

تمـــة الحيـــاة الفانيـــة

وجميعـــــنا نســـــعى إليـــــــ
ـــــه بهمـــــة قعســـــائية

<u>*الوفاء في شعر الشاعر عطا الله مغامس*</u>

وشـــاعرنا وفيٌّ لرفاق الطريق والقلم، وأكـــثر مـــا يمـــثل بـــرثائه لزملائه المدرسين وأصدقائه، حيث تظهر براعة الشاعر وصدقه، ذلـــك أن الشاعر الراثي بعيدٌ عن طلب المنفعة أو الجـــاه وغيـــرها ممـــا يأمله المادحون من الأحيـــاء، هـــاهو يرثي صديقه وزميله المربي قـــدري العمر الذي خرَّج أجيالاً من الشباب في حماة وحمص، إذ قال بعد ديباجة طويلة مظهراً قـــدر المـــربي قدري العمر ومكانته في ضمير إخوانه:

قـــدري ســـيذكرك الرفاق مواسياً
وأخـــاً كـــريماً مرشـــداً وعميـــدا
وردوا صـــفاتك مـــنهلاً فـــترنَّحوا
ووصـــفت صـــفاتك لـــلورى مورودا

ويـــزور الشـــاعر المعـــروف زكـــي المحاســـني مدينة ابن الوليد -حمص- ويعرِّج على ثانوية خالد بن الوليد ليزور صديقه مدير الـــثانوية عطـــا الله مغـــامس الـــذي رحب به بقصـــيدة رائعة تنم عن الصداقة والمودة التي يتحلى بهما المربون الشعراء إذ قال:

يـــا أبـــا زكـــوان قـــد وافيت أهلا
رحبـــتك الـــدار قيعانـــاً وســـهلا
أنـــت فـــي حمص، وحمص، جنَّةٌ
لفِّهـــا العاصـــي بـــبرديه فحـــلا

ثم يشير الشاعر عطا الله مغامس إلى جمـــال حمـــص، عروس العاصي، ويسأله هل حـــركت شـــاعريته الـــثرّة؟ ليطربـــنا بـــبعض المقطوعات الشعرية الغنائية:

يـــا أبـــا زكـــوان هـــلا حـــرَّكتْ
حمـــص مـــنك الوتـــر الشـــادي هلا
هـــات مـــن أنغـــامك السمو صبا
أو بياتـــــاً أو نهـــــاوند تجـــــلى

ويشتد المرض وتتكاثر الهموم وتزداد الآلام على شاعرنا عطا الله مغامس فيعرف أن قـــدره قد اقترب، فيكتب آخر قصيدة من عمره الباقي، خصها لرثاء نفسه، إذ تنم معانيها عن إحساســـه باقـــتراب الأجـــل منه أثناء مرضه، وهـــاهو يـــرثي نفسه فيها، كما رثى مالك بن الريب نفسه، فقال عطا الله:

وقفـــت لـــدى المرآة أرقب هامتي
يـــدب إليهـــا هـــادم العمـــر عاتيـــا
فـــلما رأيـــت الشيب لاحت بروقه
يـــبدو مـــن رأســـي الغيوم الدواجيا
تذكرت أن الموت مني على خطى
وأن شـــبابي إذ مضـــى ليـــس غاديا

رحـــم الله شـــاعرنا المربي عطا الله مغامس رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه.



تلكم دياري..

شعر: طارق الروبة

أردعـــت فـــي الأرض الـــرّباط فؤاديـــا

فـــي حـــبّها مـــلكت زمـــام قياديَـــا

فهـــي الـــتي قـــد أترعتـــني عشـــقها

وبحـــبّها مـــا كـــنت قـــطُّ مغاليَـــا

وهـــي الضّـــياء تـــلألأت وتـــألّقت

وهـــي المـــنى وهـــي المـــرام لذاتيـــا

فـــبها تدفّقـــت الحيـــاة بخـــافقي

وبهـــا أشـــعّ الـــنّور فـــي أحداقيـــا

وبهـــا تنشّـــقت العـــبير مؤرجـــاً

بفـــرائد الأطيـــاب فـــي أســـحاريا

أســـرتْ بفيـــض ســـنائها وبهائهـــا

قلـــبي فـــبتّ بعشـــقها متغـــنّيَا

لا تســـتطيب لـــيَ الحيـــاة بغيـــرها

هـــي قبلـــتي تســـمو بـــروحي عاليـــا

تـــلكم ديـــاري هـــل ألام بعشـــقها

حـــبّي لهـــا هـــو بـــارئي ودوائيَـــا








أُطْعِمــــتُ مـــن خيـــراتها متـــنعّماً

حـــتّى غـــزوها عُـــنوةً أعدائيَـــا

شُــــرِّدتْ عـــنها مكـــرهاً بفظاعـــةٍ

مـــن بطشـــهم فـــتجذّرت آلاميَـــا

غـــرباء خطّـــوا فـــي الدّيـــار رحـــالهم

قـــد أتخمـــوا أجوافهـــم بدمائيـــا

ســـفكوا الدّمـــاء وأمعـــنوا فـــي غيِّهـــم

نشـــروا ظلامـــاً حالكـــاً مـــتراميَا

حجـــبوا ضـــياء الشّـــمس عـــن آفاقـــنا

وتـــبجّحوا كـــي يطمســـوا تاريخيَـــا

فغـــدوت مقـــروح الجفـــون مســـهّداً

مـــن بعـــد مـــا أُقصـــيتُ عـــن أفيائيـــا

لكنّـــني مهمـــا اغـــتربت فإنّـــني

أبغـــي الحـــمى ويحثّـــني إصـــراريا

مهمـــا الصّـــعاب تـــزاحمت إنّـــي لهـــا

طَـــوْدٌ يواجـــه مجـــرماً مـــتعدّيا

ســـأظلّ فـــي الأبـــناء أزرع حـــبّها

ســـأظلّ أُشْـــرِبُ عشـــقها أحفاديـــا

ســـأظل امتشـــق الحســـام مجـــاهداً

حـــتّى أحقّـــق منـــتهى آماليَـــا

ســـأظلّ للـــتحرير أســـعى ثائـــراً

ســـأظلّ فـــي وجـــه الغـــزاة مـــناديَا







لا تحســـــبوا أنّـــــا لضـــــيمٍ نرتضـــي

مهمــــا ســـعيتم فـــي الدّمـــار مســـاعيَا

*　*　*

هـــي ذي الخطـــوب تســـعّرت أخطارهـــا

كـــم ســـهّدت مـــن جمـــرها أجفانيَـــا

كـــم جـــرّحَتْ لـــي خـــافقي بســـهامها

كـــم أثقـــلت مـــن عبـــئها أحماليَـــا

يـــا مهـــبط الإســـراء يـــا مهـــد المســـيـ

ـــحِ ترقّـــبي عـــوداً لـــنا وتحدّيـــا

فمواكـــب الشّـــهداء تطـــلب ثأرهـــا

مـــن معـــتدٍ بـــالمين يســـلب حقّيَـــا

والـــدُرَّةُ الطفـــل الشّـــهيد محمـــدٌ

صـــرَخاته تجـــتاح تهـــتف عاليَـــا

إنّـــا نمـــوت لكـــي نـــردّ المـــوت عـــن

أطفـــالكم، هـــل تفهمـــون عطائيَـــا

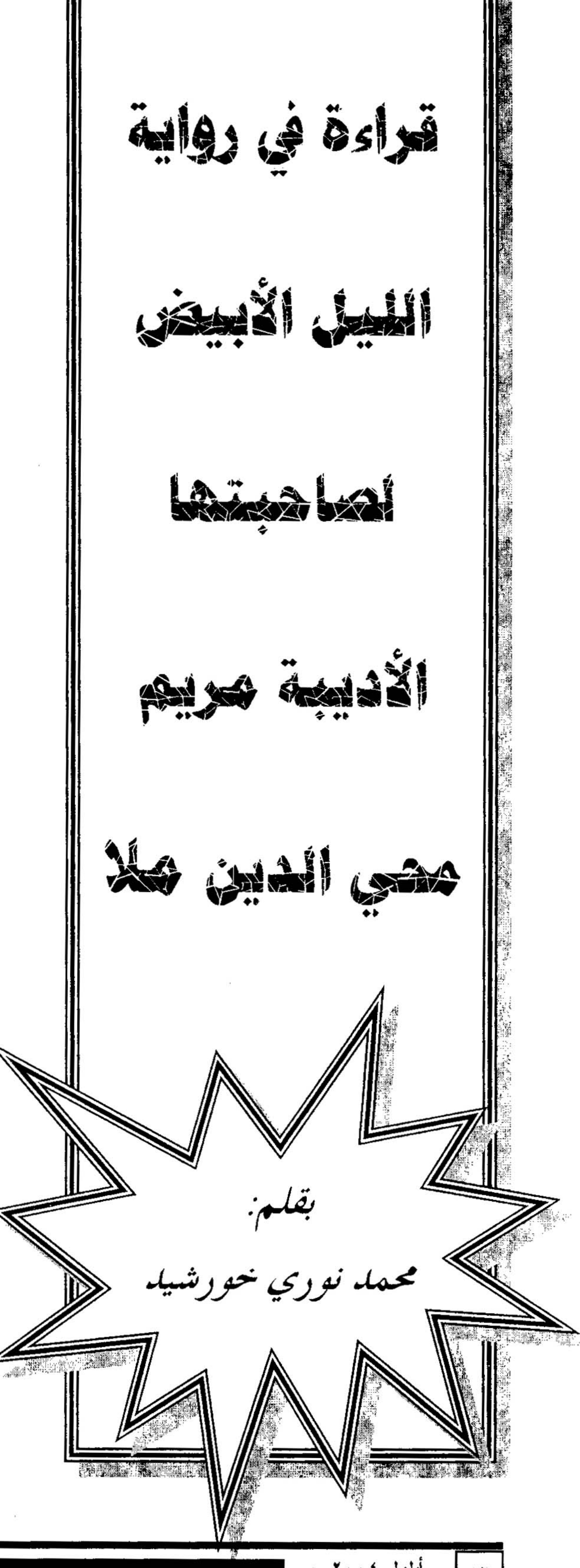
إنّـــا نمـــوت لكـــي تعـــود لأمّـــتي

أمجادهـــا تســـمو تُـــزينُ ســـمائيا

هـــذا ندائـــي ضـــجّ يطـــلب عونكـــم

يـــا عُـــرْبُ هـــل مـــن ســـامعٍ لـــندائيا



قراءة في رواية الليل الأبيض لصاحبتها الأديبة مريم محي الدين ملا

بقلم:
محمد نوري خورشيد

رواية: (الليل الأبيض) لكاتبتها الروائية مريم محي الدين ملا. صدرت ضمن طبعة أنيقة تقع في /١٩٠/ صفحة من القطع الوسط. على الوجه الأول من غلاف الكتاب صورة آسرة موحية تعكس عنوان الرواية، وهي عبارة، عن أشجار سامقة تعانق صفحة السماء الموشّاة ببياض متوهّج يزيح ظلام الليل.

تبدأ الرواية بإهداء من صاحبتها ابنة سورية الحبيبة إلى الإمارات العربية المتحدة موطن فكرها وقلمها، وتعقب الإهداء خاطرة شعرية وهي بيتان للشاعر (إلياس أبو شبكة) يدعو فيهما العشاق بأن يريحوا قلوبهم من الهوى لما يسبب لها من البؤس والشقاء.

تسرد الأديبة (مريم) روايتها بلسان شخصية (نادر) ومن خلال هذه الشّخصية (الكولومبوسية) تستكشف لنا معالم الرواية بأحداثها الواقعية والاجتماعية، وتؤالف أحياناً في بعض مشاهدها بين الرومانسي الحالم وأسئلة الواقع المأساوي، وقضياه الشائكة عبر مجموعة من الشخصيات الطيبة التي يجمعها القدر والمصادفة في منزل السّيدة (ريحانة).

تستفتح الرواية برحلة نادر وهو شاب حالم تقله عربة يجرها حصانان إلى قرية نائية تدعى (اليازدية) فيها تم تعينه كمدرس لمادة اللغة العربية يترجل نادر من العربة ليستنشق هواءً عليلاً، فيسمع عويلاً وأصواتاً، يدفعه فضوله صوب مصدر البكاء والأصوات، فيلمح على تلة قريبة حشداً من الناس في ثياب حداد يوارون جثمان ميّت، فيحث الخطا نحوهم، فإذا به يتعثر بزهرةٍ، يلتقطها فينفصل رأسها الجميل من غصنها، وإذّاك تلمحه سيدة عجوز تراقبه بعينيها الحزينتين المعاتبتين، فيبصر في يدها باقة أزهار، يدرك بأنَّ تلك الزهرة إنّما كانت قد سقطت منها، فتأمره السيدة بالسكوت، وتطلب منه الجلوس إلى جوارها، وبعد انتهاء

مراسم الدفن، يلمح نادر من بين الوجوه الحزينة الصفراء وجه امرأة فاتنة، ذات عنق طويل أبيض ما تلبث تخطو مسرعةً حتى تغيب عن أنظاره، تاركةً في خياله حلماً جميلاً، وبعد ذلك يتم التعارف بينه وبين السيدة العجوز التي تدعوه إلى دارها الرّحبة، وتعطيه غرفةً، وهنا يبدأ نادر التأقلم مع البيئة الجديدة، ويحاول استكشافها ومعرفة ساكنيها، وشيئاً فشيئاً تتوضح أمامه ملامح منزل السيدة ريحانة، ويتعرّف على من فيه واحداً بعد الآخر، فيتكيف مع محيطه الجديد، ويألفه أكثر مما يألف المرء دار ذويه.

ويجد عند ربة المنزل السيدة ريحانة الحب والدفء والحنان، ويتعرّف على (سالم) ذلك الرجل الطيب النشيط الذي يخدم السيدة سعيداً بتلبية الطلبات والخدمات، ثم تظهر له شخصية (عماد) الذي يملأ حياته، فيصبحان صديقين حميمين، وهو شاب متعلم يعمل في منحلة السيدة ريحانة، ومن أهل الدار يعلم أنّ ذلك الميت الذي دفنوه كان شاباً يدعى كريم سكن أيضاً في تلك الدار، وكان فناناً تشكيلياً أحبَّ زهرة ابنة ثريا، تلك المرأة الجميلة التي رآها نادر في المقبرة، وهي زوجة الدكتور أسامة، ومنزلها إلى جوار منزل السيدة ريحانة، فتنشأ علاقة حب من طرف واحد بين نادر وثريا التي ترتاح لاهتمامه بها فيلتقيان غير مرة، إلا أن ثريا تضع لحبه حداً حينما تزمع على مغادرة منزلها، لأنها متزوجة.

وأما السيدة ريحانة فإنها نموذج للمرأة الأم ذات القلب الكبير المتدفق كالينبوع حباً وحناناً، فإن قلبها مفتوح كباب منزلها على مصراعيه لإيواء كل التائهين المغتربين بل كل الناس الذين يحتاجون إلى الحب والحنان والمأوى، لقد كانت تتمتع بالحكمة والصبر والإرادة القوية التي لا تتزعزع أمام المصائب والملمات، فما كانت تنتهي من مصيبة حتى كانت تتلقى أخرى أشدّ منها وآلم، فبعد ابتلائها بموت الفنان الشاب كريم فوجئت بوفاة زوجها حليم، وما إن التأمت جراحاتها، وخف حزنها قليلاً حتى بوغت سكان الدار جميعاً بمرض عماد خطيب ميرا، لقد كان مرضه أشد من وقع السيف على الجميع وبخاصة على نادر لقد تقطع قلب نادر ألماً عليه، لقد ظلّ خير صديق ومواس له، وتمكن مع السيدة ريحانة أن يزرعا بذور الأمل في تربة قلب عماد الذي أجريت لرأسه عملية جراحية، فقدَ على أثرها بصره، ولكنه بزواجه من ابنة عمه ميرا استعاد ثقته بنفسه، فرفرفت أجنحة الفرحة في سماء منزل ريحانة، لكنها لم تدم كثيراً، لأن ريحانة تفاجئ جميع من في دارها بموتها، فيقرّر عماد وميرا العودة إلى المنحلة، لأنهما لم يستطيعا بعد رحيل السيدة ريحانة العيش والبقاء في منزلها، وأما نادر فيحزم حقائبه محتضناً صورة أمه وأبيه، فيضعهما على سطح الحقيبة، ثم يقفلها مسدلاً ستائر تلك الغرفة التي آوته عائداً إلى أسرته تاركاً منزل السيدة ريحانة لأزهار الربيع...

تلك كانت خلاصة رواية (الليل الأبيض)، لقد برز فيها الإبداع الراقي لصاحبتها، الأديبة مريم من خلال لغة أدبية إيحائية نابضة تدفقت من دمها، وخفق قلبها، وتطواف روحها، لقد اتّسمت لغتها بالشاعرية المنسابة والخيال المجنّح، فالطبيعة كانت لديها منبع الجمال، ومرتكز التأمل الذي دفعها إلى نسج صور شعرية رائعة تدغدغ مشاعر وخيال قارئها من مثل:

"القرية محاصرةٌ بالمروج مثل خصر امرأة فاتنة ربطته بحزامٍ ملوّن" ص ٣٤.

"نفَتح نافذةً شيخوختها لنتعلم منها ونرى الحياة من خلالها" ص ٥١.

"كانت ثريا ترتدي فستاناً جميلاً ينعكس لونه على بشرتها البيضاء فبدت كالبحر.."

ولاحظت أن عند الأديبة مريم إحساساً مرهفاً واهتماماً بالغاً في الوصف الدقيق للجزئيات الصغيرة في حياة شخوص روايتها كما جاء على لسان نادر:

"وقفت عند باب ثريا وقرعته قرعاً خفيفاً، كأنني تلميذ مدرسة، يطرق غرفة معلمته انتظرت دقائق، فلم يفتح أحدٌ الباب، قرعته ثانيةً، ففتحته، ورأيتها أمامي، كانت أجمل مما تخيلت، فتوقفت ضربات قلبي قليلاً.." ص ٤١.

حقاً إنها أبدعت في وصف وتصوير الطبيعة، والمكان والزمان وتطلعات شخوصها مبرزة أمانيها وآلامها، انقباضها وانبساطها إذ جعلت الطبيعة تقاسم وتشارك الشخصيات أفراحها وأتراحها:

"السماء تتلبد حزينةً كالحزن المرسوم على وجه ثريا" ص ٧٨.

"هل تعلم يا عماد حين رحلت بقيت الفرس حزينةً طوال ثلاثة أيام لا تأكل وجبتها كاملةً.." ص ١٢٧.

لقد بدت لي الروائية مريم بأن لها مرآتها الخاصة التي ترى الناس من خلالها، فإنّها بانفعالاتها الإنسانية، وبمشاعرها النبيلة النابعة من قلبها الزاخر بالطيب والمودَّة استطاعت أن ترسم لنا شخصيات كأنها صورٌ عنها، شخصيات بشرية محبة طيبة القلب، مضحية تعطي بلا مقابل، قلما نجد أمثالها في واقعنا الرّاهن.

وتمكنت من خلال عملها هذا من السيطرة على وجداني وعقلي بدءاً من عنوان روايتها (الليل الأبيض) الذي أثار فضولي لفك مفرداته، وفهم ما يعنيه فلم تتضح لي معانيه، ولا إذا كانت الكاتبة قد وفقت في اختياره عنواناً لروايتها إلا بعد انتهائي من قراءتها، حينئذ أدركت بأنها تعني (بالليل) ما ألمَّ بحياة شخوصها من المحن والآلام التي خيّمت عليها كظلام الليل، ولكنّ أحلام وأمال الشخصيات التي امتلكت قلوباً تتدفق طيباً وإنسانيةً، حباً وتضحيةً كانت بمثابة البياض الذي واجه سواد الليل، وخفَّف من وطأته عليها، ويبدو لي بأن الأديبة تدعو في روايتها هذه إلى عالم تسوده المحبة الإخاء والمواساة في هذا الزمن الرّديء الذي افتقدت فيه القيم النبيلة، وعلاقات المودّة والإخاء.

حقاً إنّ هذه الرواية غنية في سياقاتها ومشهدياتها السّردية، وقدرتها على البوح، وإضاءة غيابات أبطالها، وتظليل حضورهم، فصاحبتها تمتلك خيالاً خصباً أنتج لنا الكثير من الصور الرائعة من خلال لغة بعيدة عن التقريرية، لغة شفّافة موحية تحمل المعاني العميقة، متفجرة بالحب بأبهى حلة لتولد المتعة لقارئها، قرأت الرّواية وأنا خالٍ من الأحكام المسبقة، فكنت محكوماً بالنّص الرّوائي وتداعياته الذهنية والجمالية، فسحرت بلغتها الشّفافة، وبعباراتها الآسرة المجنّحة بالصور والمعاني السامية، متأثراً بأحداثها، ومتفاعلاً مع شخصياتها التي أحببتها، حزنت لأحزانها، وسعدت لأفراحها، متمنيا لو كنت أحيا معها بعيداً عن واقعنا الخانق.

ومما لفت انتباهي توفيق الروائية في تقنية الحوار وفي بناء العمل الرّوائي، لقد كان الحوار مناسباً للشخصيات ولا يبعث إلى السأم، والذي شدني أكثر هو اهتمامها البالغ بالسّرد الوصفي والتصوير الفنّي لإظهار بعض صفات الأماكن والشخوص، كما في وصفها لبيت السيدة ريحانه، وللمنحلة، وللشخصيات الرئيسية، كـ نادر وعماد وريحانة وثريا وميرا.. وثمة شخصيات ثانوية تشكل تتميما مهماً وضرورياً وتكملة طبيعية للبنية الروائية، ولا تؤثر فيها تأثيراً واضحاً وملموساً، وأنها موظفةً توظيفاً مدروساً ومراداً كشخصية

الحلاق (زهير) وصاحب المقهى (أبو حبيب) وابنه، وشخصية الحذّاء (أبو ممدوح)...

وأخيراً آمل أن يسع صدر الأديبة (مريم) لبعض من الملاحظات الصغيرة التي لفتت نظري، لاحظت في الرواية أخطاءً نحوية وإملائية ومطبعية كثيرة وهذه بعضٌ منها:

أخطاء نحوية	الصواب	الصفحة
ينتظراني	ينتظرانني	١٢
كان موجود	موجودا	١٩
قدمي ستتجمد	ستتجمدان	٥٩
تغز ساقيّ وتدميها	تخز ساقيّ وتدميهما	٤٠
كم رغيف	رغيفا	١٩
كأنها	كأنهما	٤٥
إن كلا	إن لكل منهما	٥٠
أراقب عماد	عمادا	٩٣
لم تتعدى	لم تتعدَّ	١١٨
يعودوا	يعودون	١٦٩
لأذناي	لأذنيّ	على الوجه الثاني من الغلاف

أخطاء إملائية ومطبعية	الصواب	الصفحة
ان	أن	٣٠
انتظر	أنتظر	٥٥
صدفة	مصادفة	٩٨
اقتربتما	اقتربت	١١٩
قارص	قارس	٥٩
إليها	أيّها	١٤٩
رزاز	رذاذ	١٧٣
الذان	اللذان	١٨٢
نادر	عماد	٣٦

كما لفت انتباهي بعضٌ من العبارات التي وجدت فيها ضعفاً في الصياغة مثل:

"لست أنا أيضاً طبيباً" ، "كنت أراها نحوها"، "تغز ساقيّ وتدميها"، "إن كلا منهما مشكلة".. إضافة إلى هذه الهفوات الصغيرة، رأيت الكاتبة لم توفق تمام التوفيق في استخدام علامات الترقيم لما لها من أهمية كبيرةٍ بالنسبة للقارئ والكاتب، ولاحظت أنها تعثرت حين جعلت أشجار اللّوز تزهر، وشقائق النّعمان تطلُّ برأسها الأحمر في نهاية فصل الصيف، فأشجار اللّوز - كما نعلم - تزهر في أول الربيع، وشقائق النّعمان أيضاً تظهر في فصل الربيع الجميل.

ولتسمح لي الرّوائية (مريم) أن أهمس في أذنها هذه التساؤلات:

ما الذي دفع بالأستاذ نادر إلى الذهاب إلى قرية (اليازدية) قبيل افتتاح المدارس بأكثر من شهر..؟

أيةُ جرأة دفعت نادرا ليدعو ثريا وهي امرأة متزوجة إلى نزهة بين الحقول، ويلتقي بها غير مرة؟

كيف التقى الحبيبان نادر وثريا بعد طول فراقٍ وشوقٍ ثلاث مرات واكتفيا فقط بتبادل النظراتِ، والأحاديث الخجولةً؟

من أين استمدت السيدة ريحانة كل ذلك الطّيب والحكمة والحنان وهي امرأةٌ من الطبقة النبيلة؟ ولماذا جعلت منزلها مأوى لأبطال الرّواية.؟.

نادر بطل الرواية الذي حمل صورة أمه وأبيه كيف ظلّ كلّ تلك المدة الطويلة بعيداً عن أسرته التي لم نعرف عنها إلا النزر اليسير دون أن يسأل عنها إلا من خلال الرسائل؟

أكتفي بهذا القدر من التساؤلات مقدّرا وشاكراً جهد الروائية مريم في هذا العمل الروائي الرّائع، وآمل أن أكون قد وفقت في تسليط الضّوء على بعض جوانبه، وعوالمه الجميلة، وفي رأي أنّ الكاتبة كانت موفقة في عملها هذا، وإن ظهرت فيه بعض الهفوات الصغيرة التي لا تنتقص من القيمة الفنية، وتقنياته الروائية، فروايتها (الليل الأبيض) جديرة حقاً بالقراءة والتأمل لما فيها من الد والفائدة الكثير الكثير.




أضحى التنائي..

شعر: ابن زيدون

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا — وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بِنتمْ، وبنَّا، فما ابتلّت جوانحنا، — شوقاً إليكم، ولا جفَّت مآقينا

يكاد، حين تناجيكم ضمائرنا — يقضي علينا الأَسى، لولا تأسّينا

حالت لفقدكم أيامُنا، فغدت — سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألُّفنا — وموردُ اللهوِ صافٍ من تصافينا

وإذ هَصرنا غصونَ الأُنس دانيةً — قطوفها، فجنينا منه ما شينا

لِيُسقَ عهدُكمُ، عهدُ السرور، فما — كنتم لأرواحنا إلاَّ رياحينا!

مَن مُبلغ المُلبسينا بانتزاحكمُ — حزناً، مع الدهر، لا يبلى، ويُبلينا:

إنَّ الزمانَ الذي مازال يُضحكنا — أُنساً بقربكمُ، قد عاد يُبكينا

غيظَ العدى من تساقينا الهوى، فدَعوا — بأن نغصّ؛ فقال الدهر: آمينا!

فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا — وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا







وقـد نكـونُ، ومـا يُخشـى تفرُّقـنا — فـاليومَ نحـن، ومـا يرجى تلاقينا

لـم نعـتقد بعدكـم إلاّ الوفـاءَ لكـم — رأيـاً، ولـم نتقـلد غيـره ديـنا

لا تحسـبوا بُعدكـم عـنا يغيّـرنا — إذ طالمـا غيّـر النـأيُ المحبّيـنا!

والله، مـا طلـبت أهواؤُنـا بـدلاً — مـنكم، ولا انصـرفت عنكم أمانينا

ولا استـفدنا خـليلاً عـنك يشـغلنا — ولا اتخذنـا بديـلاً مـنكِ يُسـلينا

يا ساريَ البرقِ، غادِ القصرَ فاسقِ به — مَن كان صِرفَ الهوى والودّ يَسقينا

ويـا نسـيمَ الصـبا، بـلّغ تحيَّتـنا — مَـن، لو على البعد، حيا كان يُحيينا

يـا روضـةً طالمـا أجـنت لواحظَنا — ورداً جـلاه الصـبا غضّاً، ونسرينا

ويـا حيـوةً تملّيـنا بزهـرتها — مُـنىً ضـروباً، ولـذّاتٍ أفانيـنا

ويـا نعيمـاً حضـرنا مـن غضارتهِ — فـي وشـيِ نُعمى سحبنا ذيلَه حينا

لسـنا نسـمّيكِ إجـلالاً وتكـرمةً — وقـدركِ المعتـلي عـن ذاك يُغنينا

إذا انفـردتِ ومـا شوركتِ في صفةٍ — فحسـبُنا الوصـفُ إيضـاحاً وتبيينا

يـا جـنةَ الخـلد، أُبدلـنا بسلسـلها — والكوثـرِ العـذبِ، زَقُّوماً وغسلينا

كأنّـنا لـم نـبت، والوصـل ثالثُـنا — والسـعدُ قد غضَّ من أجفان واشينا







سِـرّان فـي خاطـر الظـلماء يكتمنا ... حـتى يكـاد لسـانُ الصبح يُفشينا
لا غروَ في أن ذكرنا الحزنَ حين نهت ... عـنه الـنهى، وتركنا الصبر ناسينا
إنَّـا قـرأنا الأسى، يومَ النوى، سُوَراً ... مكـتوبةً، وأخذنـا الصـبرَ تلقيـنا
أمَّـا هـواكِ فـلم نعـدلْ بمـنهلهِ ... شـرياً، وإن كـان يروينا، فيظمينا
لـم يخـفَ أفـقُ جمـالٍ أنتِ كوكبُه ... سـالين عـنه، ولـن نـرجره قالينا
ولا اخـتياراً تجنبـناكِ عـن كـثَبٍ ... لكـن عدتـنا عـلى كُـرهٍ عوادينا
نأسـى عـليكِ، إذا حُـثّت مشعشـعةً ... فيـنا الشـمولُ، وغـنَّانا مغنّيـنا
لا أكـؤسُ الـراح تـبدي من شمائلنا ... سـيما ارتيـاح، ولا الأَوتـارُ تُلهينا
دومـي عـلى العهد ما دمنا محافظةً ... فالحـرّ مَـن دان إنصـافاً كما دينا
فمـا ابتغيـنا خـليلاً مـنكِ يحبسـنا ... ولا اسـتفدنا حبيـباً عـنك يُغنيـنا
ولـو صـبا نحونـا، من علوِ مَطلعهِ، ... بدر الدجى لم يكن-حاشاكِ-! يُصبينا
أولـي وفـاءً، وإن لـم تـبذلي صلةً ... فالذكـرُ يُقنعـنا، والطيـفُ يكفيـنا
وفـي الجـوابِ قـناعٌ، لو شفعتِ به ... بيـضَ الأيـادي التي مازلتِ تُولينا!
عـليكِ مـني سـلامُ الله، مـا بقيـت ... صـبابةٌ مـنكِ نُخفيهـا فتُخفيـنا